

إيفو أندريتش
اتحاد الكتاب العرب
الفناء الملعون
رواية
ترجمة:
وليد السباعي
غ. خالدي ٩٢
Bibliotheca Alexandrina

الغنــاء الملعــون

إيفو أندريتش

الفناء الملعون

رواية

ترجمة:

د. وليد السباعي

تصميم الغلاف الفنان : غازي الخالدي

العنــوان الأصلي :

IVO ANDRIC

PROKLETA AVLIJA

ـ الفناء : هو المكان بين البناء وسور البيت . ويقصد به هنا : السـجن .

إنه الشتاء ، غمر الثلج كل شيء حتى أبواب البيـوت ، آخـذاً من الأشياء أشكالها ، وواهباً إياها لوناً واحداً ومنظراً واحداً .

وتحت هذا البياض ، غابت المقبرة الصغيرة التي لم يعد يُرى منها سوى تلك الصلبان الصغيرة بارزة من خلال الثلج الكثيف. الشيء الوحيد الممكن تمييزه عبر الغطاء الثلجي ، هو آثار ذلك الطريق الضيق الذي تكوّن البارحة إبان تشييع جنازة الراهب بيتر .

في نهاية ذلك الطريق تتسع مساحة من الندى الأملح اتخـذت شكلا دائرياً غير منتظم ، اكتسب الثلج من حولها لوناً ارجوانياً طريـاً موحلا بدا كجرح طازج في بياض عام ، يمتد إلى اللانهايـة ، ليختفي بصورة غير ملحوظة في صحراء سماء فضية ما تزال مليئة بالثلج .

لقد أمكنت رؤية ذلك كله من خلال نافذة حجرة الراهب بيتر ، حتى اختلط بياض العالم الخارجي بذلك الظل الناعس المخيم في جو الحجرة ، وترافق الهدوء السائد برتابة صوت تلك الساعات الكثيرة التي ما زالت تعمل ، في حين توقف بعضها الذي لم يتعبأ . لا شيء يشوب ذلك السكون سوى خلاف هادئ بين راهبين وقفا يحصيان تركة الراهب بيتر التي بقيت من بعده .

ويهمهم الراهب العجوز ميو يوسيتش بكلمات غير مفهومة ، إنها صدى خلافاته السابقة مع الراهب المرحوم بيتر ، الذي كان ساعاتياً ومصلّحاً للبنادق وميكانيكياً مشهوراً ، جمع بوَله كل ما استطاع جمعه من الآلات التي أنفق في سبيلها نقود الدير ، وحافظ عليها بمنتهى الحرص من أي كان . ثم يوبخ العجوز الراهب الشاب راستي سلاف الذي اقترح اشعال المدفأة حتى لا يتم جرد التركة في غرفة باردة .

ـ يا لشبابك المسكين ! كلكم هكذا أنتم الشباب . البرد في عظامكم كالهوانم . تريد غرفة دافئة !! وكأن ما صُرف وما حُرق هذا الشتاء كان قليلاً ! .

ويبدو أن العجوز بتقريعه هذا انما كان يؤنب المرحوم الذي لم يسوَّ التراب فوقه بعد . صمت . لكنه سرعان ما تابع تقريعه للشاب .

ـ أقول دائماً : أنت لست راستي سلاف[1] وانما راسبي سلاف ! حتى اسمك يا هذا لا يوحي بما هو جيد . وبينما كان الرهبان سابقاً يتخذون أسماء كالراهب ماركو ، والراهب ميو ، والراهب ايفو ، واكان زمناً جيداً ، نراكم اليوم تأخذون أسماء من الروايات . من أين جاءك اسم الراهب راستي سلاف ، أو فويسلاف ، أو براني مير ، وهو بالفعل ما يحصل معنا ؟

يشيح الراهب الشاب بيده لهذا التأنيب والملاحظات التي سمعها مائة مرة ، ويعلم الله أكم مرة سيسمعها بعد . كان العمل مستمراً .

---

(1) راستي سلاف : اسم علم يعني باني المجد ، وراسبي سلاف عكسها . (المترجم)

للرجال ، الذين يحصون تركة المرحوم الذي كان هنا قبل يومين فقط ، حياً كما هم الآن ، شكل خاص • إنهم ممثلو تيار الحياة المنتصرة السائرة في طريقها ، وراء ضروراتها ، وليسوا أولئك المنتصرين المبدعين • إذ إن كل مؤهلاتهم تتلخص في أنهم عاشوا أكثر من المرحوم• وحينما يراقبهم الانسان من طرف يبدون له كالمختطفين• مختطفون تم التعهد لهم بعدم العقاب ، واثقون بأن صاحب التركة لن يعود ، ولن يفاجئهم وهم في عملهم • انهم ليسوا هكذا بالضبط، وإنما يذكرونك بذلك على صورة من الصور •

ــ تابع التسجيل •

قال الراهب العجوز بصوته المزعج :

ــ اكتب كماشة واحدة كبيرة ، ملقط واحد •••

وهكذا دواليك ، آلة بعد آلة • وعند الانتهاء من كتابة كل جملة يُسمع الصوت الأصم لارتطام الآلة التي سُجلت ، وهي ترمى فوق كومة الآلات المبعثرة ، المرمية على منضدة عمل الراهب المرحوم بيترو المصنوعة من السنديان •

وحينما يراهم الانسان هكذا ويسمعهم ، يرتد كل شيء بداخله غريزياً من الحياة الى الموت ، من أولئك الذين يعدّون ويتملكون الى ذلك الذي فقد كل شيء ، والذي لم يعد محتاجاً الى أي شيء لأنه نفسه لم يعد موجوداً •

★ ★ ★

منذ ثلاثة ايام خلت فقط ، كان الراهب بيتر يرقد أو يجلس متحدثاً على هذه الأريكة العريضة التي ازيل عنها الفراش والغطاء ، ولم يبق منها سوى اخشابها العارية . والآن ، وبينما ينظر الشاب الى قبر المرحوم من خلال الثلج ، يفكر في أحاديثه ، ويريد القول ثالثاً ورابعاً كيف أنه كان يجيد الحديث ، لكن ذلك لا يمكن أن يقال الآن .

أكثيراً ما تحدث خلال الأسبوع الأخير ، ومعظم الحديث كان حول اقامته السابقة في مدينة استنبول . وكانت قبل زمن بعيد. ذلك أن الرهبان ، وبسبب عملهم الشاق المضني ، كانوا قد أرسلوا الى مدينة استنبول الراهب تادى اوستويتش ،الوصي سابقاً ، والمحاسب سابقاً « كان رجلا مزيجاً من سابقاً ! رجلا بطيئاً ومحترماً ومغرماً ببطئة واحترامه » الذي كان يجيد التكلم بالتركية « بشكل بطيء ومحترم » ، لكنه لم يكن يجيد القراءة والكتابة بها . لذا أرسلوا معه الراهب بيتر مرافقاً ، وبوصفه رجلا يجيد الكتابة بالتركية .

سرعان ما أمسكت الشرطة بعيد وصولهما برسالة مرسلة الى المفوضية النمساوية في مدينة استنبول ، شرحت بها أوضاع الكنيسة في ألبانيا حول اضطهاد رجال الدين والمؤمنين المسيحيين ومطاردتهم. وقد تمكن حامل الرسالة من الهرب . وبما أنه لم يصل في ذلك الوقت أي راهب آخر الى استنبول من تلك الأنحاء ، فان البوليس التركي ، وبمنطق أوجده لنفسه ، سجن الراهب بيتر . بقي شهرين في السجن « قيد التحقيق » على الرغم من أن أحداً لم يستجوبه كما يجب .

لقد تحدث الراهب بيتر عن هذين الشهرين الذين قضاهما في سجن استنبول أكثر وأجمل مما تحدث عن كل ما عداهما . كان يتحدث حديثاً متقطعاً ، على شكل فصول ، كما يتحدث انسان مريض

بداء عضال ،وهو يحاول اخفاء آلامه الجسدية عن محدثه ، وتفكيره المستمر في موت قريب . ولم تكن تلك الفصول لتتابع بالترتيب وبشكل صحيح ومتسلسل ، بل كثيراً ما كان يعيد بعضاً مما قاله وهو يواصل حديثه ، وكثيراً ما كان يقفز الى الأمام متجاوزاً فترة كبيرة من الزمن . كان يتحدث كانسان لم يعد للزمن معنى لديه ، انسان لم يبق للوقت أو تتابعه لديه أية قيمة حتى ولو كان جزءاً من حياة الآخرين . فقد تتقطع حكايته أو تتابع أو تعاد . وقد يقول أشياء قبل أوانها ، ثم يعود إلى الوراء ، ويكمل بعد الانتهاء ، يفسر ويتوسع ، غير آبه بالمكان ، بالزمن والأشياء ، بالحوادث التي حدد مسارها بدقة والى الأبد .

ولا ريب أنه في شكل من القص كهذا ستبقى فراغات وأماكن لم تفسر . وكان الشاب يخجل من مقاطعة محدثه ، أو إرجاعه الى تلك الأماكن والفراغات وفرض تساؤلاته . إذ من الأفضل على كل حال أن تترك الانسان يتحدث بحرية .

* * *

الفصل الأوّل

إنها بلدة صغيرة من المساجين والحراس ، تلك التي يطلق عليها سكان شرق المتوسط والبحارة من مختلف الجنسيات اسم « دي بوزيتو » ، والمعروفة باسم الفناء الملعون ، كما يسميها السكان هنا ، خصوصاً من كانت لهم صلة بها . الى هنا يأتي ، ومن هنا يمر ، كل من يُسجن أو يحتجز يومياً في هذه البلدة الكبيرة كثيرة السكان . سواء أكان مذنباً أو حام حوله شك بأنه مذنب . والحقيقة أن المذنبين هنا كثيرون ، ومن شتى الأصناف . لكن الشك كان يزداد امتداداً في المساحة والعمق . ذلك أن شرطة استنبول تؤمن بشعار قائل : « ان اطلاق سراح شخص بريء من الفناء الملعون أسهل من البحث عن مذنب في غياهب استنبول » . لهذا يتم هنا الانتقاء الكبير والبطيء للمساجين . فمنهم من يُستجوب لتقديمه للمحاكمة ، ومنهم من يقضي مدة حكمه القصيرة ، ومنهم — إذا ثبت أنه غير مذنب — يطلق سراحه ، ومنهم من يرسل الى المنفى في نواح نائية . إنه الخزان الكبير الذي تنهل الشرطة منه شهود الزور « كطعم » ، والمحرضين حينما تحتاجهم . هكذا يغربل الفناء الملعون أكوام سكانه المختلفين. فتراه مكتظاً دائماً ، ودائماً يمتلىء ويتفرغ .

هنا يتواجد كبار الخارجين على القانون وصغارهم : من فتى

سرق عنقود عنب أو تينة من فـوق بسطة ، الى المحتالين العالميين واللصوص الخطريـن • كمـا يتواجـد الأبريـاء والمفترى عليهـم ؛ المخبولون والضائعون ، أو الرجال الذين اقتيدوا خطأ من استنبول ومن كل أنحاء البلاد • أكثر الموجودين هنـا سجناء من مدينـة استنبول نفسها، نخبةمن الحقير الى الأحقر، أولئك الذين يشرّحون في ميناء استنبول ودكاكينها، أو الذين يتسللون الى أوكارها على أطراف المدينة • انهم محطمو الخزائـن ، ولصوص المحافظ ، والمقامرون المحترفون ، والمحتالون الكبار ، والمبتزون ، وفقـراء يسرقـون ويحتالون حتى يعيشوا ، وسكارى ، رفاق الليل والكحول الذيـن ينسون دفع ثمن ما شربوا ، السـكارى المشاكسون والعاطلـون ، المساكين الذين بهتت ألوانهم ، الطالبون من المخدرات ما لم توهبهم اياه الحياة ، لهذا يتعاطون الحشيش، يدخنون أو يعلكون المخدرات، ولا يمكن لشيء أن يوقف زحفهم في طريق الحصول على السم الذي باتوا لا يستطيعون الاستغناء عنه ، كهول لا سبيل الى اصلاحهم ، وشبان أفسدهم قدر لا مفر منه ، ورجال لهـم غرائز وبواعث وعادات منحرفة لا يخفونها ، ولا يزوقونها ، بل يعلنونها للناس على الملأ ، لأنهم لا يستطيعون اخفاءها حتى ولو أرادوا ، فأعمالهم تسبق دائماً خطواتهم •

هناك قتلة ارتكبوا عديداً من الجرائم ، وهناك الذين استطاعوا الهرب من الأسر أكثر من مرة • لهذا تراهم الآن مكبلين بالأصفاد هنا قبل المحاكمة والنطق بالحكم ، يخشخشون بأصفادهم ، وهم في غضبهم يشتمون الحديد ومن اخترع السلاسل •

الى هنا يصل كل المحكومين لتنفيذ أحكامهم ، المطرودون من المقاطعات الغربية ، ليتم اقرار مصيرهم هنا : فإما أن يطلق سراحهم

بمساعدة الوساطات الاستنبولية وحماتهم فيعودون الى بيوتهم ، واما أن يرسلوا الى المنفى في آسيا الصغرى أو أفريقيا • هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم « العابرون » هم كهول عادة ، أناس لهم شأن ومكانة في أماكن اقامتهم ، ممثلون لبعض الأديان أو المجموعات كانوا قد اشتبكوا في صدامات أو خلافات في مكان ما من بلادهم ، واتهمتهم السلطة أو ادّعى عليهم خصومهم بأنهم أعداء سياسيون أو ثوار ، فتراهم الآن يحضرون صناديق وعلباً مليئة بالثياب والأشياء ويدافعون عنها بضراوة أمام أوغاد استانبول ، المجبرين على اقتسام الحجرة معهم ، ثم ينزوون قدر استطاعتهم منسحبين ومهمومين •

خمسة عشر بناء أرضياً ومن ذوي الطابق الواحد ، مبنية وموسعة خلال سنوات طويلة ، يربط بينها سور عال يغلق الفناء الكبير الطويل المنحدر الذي ليس له شكل منتظم • ولا يوجد حجر أسود مرصوف الا أمام البناء المخصص للحرس ومكاتب الادارة ، وكل ما عدا ذلك أرض ترابية مربوصة صلبة فضية لا يمكن حتى للعشب أن ينمو عليها • وبهذا يفهم كم من الناس يدوسونها يومياً من الصباح حتى المساء • أما الشجرتان أو الثلاث الباسقات ، فقد انعدمت فيها الحياة ، وتبعثرت في وسط الفناء ، مسلوخة مليئة بالندوب ، تعاني عيشة المعذبين خارج الفصول • هذا الفناء الكبير المتطاول يشبه في النهار سوقاً شعبية لمعروضات من مختلف العروق والشعوب • تندحر فيه ليلا كل هذه الأكوام البشرية داخل حجراتها ، بتعداد خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين رجلا في حجرة واحدة ، حيث تستمر حياة صاخبة متنوعة تندر فيها ليالي الهدوء •

مجرمو استنبول الأشداء الذين لا يخافون من الحرس ولا يحترمون أحدا ، يغنون أغاني ماجنة ، ويتصايحون بكلمات ودعوات

بذيئة لأصحابهم مـن المسجونين في حجرات مجاورة . أناس غيـر مرئيين يتشاجرون من أجل المكان والفراش . المسروقون يصيحون طالبين النجدة . بعضهم يصر صاكاً أسنانه في أثناء نومه وهو يزفر ، بعضهم يختنق ويشخر كالمذبوح ، فتعيش الحجرة الكبيرة وتتشـذ بالصوت فقط كغابة في الظلام ، فتسمع في لحظة ضحكات غيـر طبيعية وفي لحظة أخرى زفرات كشعر يقال ، وكلمتين أو ثلاث اكلمات ممطوطة من أغنية ، هي بدائل حزينة وملتاعة لرغبات حسية مختلفة، وتسمع أحياناً أصواتاً غير مفهومة ، حنجرية وثقيلة .

من الخارج تتسلل ضربات كالقرع ، وذلك حين يكون البـاب الخارجي المزدوج العتيق ــ الذي يفتح ويغلق بأنين راعد ــ يستقبل أو يلفظ الناس ليلا أفراداً وجماعات. ليلا يتم اقتياد المحكومين لتنفيذ أحكامهم أو الى المنفى . وغالباً ما يتم اقتياد رجال أشعلوا مشاجرة كبيرة في المرفأ ، يزبدون مشعثين مكدومين تهبرت ثيابهم ، وأدميت وجوههم ، وهم ما يزالون ساخنين من الغضب والكحول والضربات المتلقاة والمسداة . فتراهم يهمهم أحدهم ضد الآخر ، يتوعد بعضهـم بعضاً منتظرين أية فرصة يستطيعون بها ضرب الخصم مرة أخرى وهو مقود بين الحراس المسرعين . وحينما يباعدونهم ويسجنونهم يبقون فترة طويلة هائجين. فيتصايحون من حجرة الى أخرى مهددين متوعدين شاتمين .

حينما يشرق الصباح ، تهون الأمور قليلا بالنسبة الى الانسان الصحيح والنظيف ، قليلا فقط ، وينعلق كل هؤلاء الناس من حجراتهم المختلفة الى الفناء الواسع . وهنا ، تحت اشعة الشمس ، يتخلصون من الحشرات ، يضمدون جراحهـم ، أو يستمرون بنكاتهـم الفظـة وخلافاتهم الحادةالتي لا تنتهي، أو يقومون بتصفية حساباتهم المظلمة.

فتتكون حلقات بشرية صاخبة او هادئة . كل حلقة لها وسط . هنا مجموعة من المقامرين أو ذوي النكتة ، وهناك رجل وحيد يغني بهدوء أو يلقي شعراً وأغاني مضحكة ، وهناك ثرثار مخبول او منحرف شارد يضحك منه أفراد الحلقة ضحكاً رخيصاً ووقحاً . يقترب الراهب بيتر من احدى الحلقات ، يستمع وينظر من بعيد . ((من حسن حظي انني بلباس مدني ولا أحد يعرف من أنا ولا من أكون !)) .

هنا بجانب البناء الذي يقيم فيه تتكون كل صباح حلقة من الرجال الواقفين في الظل حول شخص اسمه زعيم ، قصير محني الى الأمام ، ذو منظر مرتعد ، يتكلم بهدوء لكن بثقة والهام . ما يقوله دائماً هو كلام يدور حول نفسه ، يقصه كله بنقلات كبيرة . يتكلم دائماً عن نفس الأشياء التي يعظمها ويكبرها ويزيدها بشكل يتوجب معه أن يعيش الانسان مائة وخمسين عاماً على الأقل حتى يمكن له أن يعيش كل تلك الأشياء .

لم تكد الشمس تستوي حتى ابتدأ الحديث :

ـــ والله لقد تمكنت من سبر العالم يا زعيم آغا .

ـــ نعم . لكن ما تفع كل ذلك ما دمت قد وقعت هنا كما ترى! وما دام الناس حقراء لا يسمحون للانسان الشريف أن يعيش ؟ بالفعل لقد ذهبت الى أماكن كثيرة ، وكنت مسروراً دائماً يحترمني الناس ويدعونني اليهم ، لكنني أيضاً كنت محترماً وكما يجب مع أي انسان .

ثم ينظر أمامه بصمت كأنه يقرأ في مفكرة ، ويبدأ وكأنه يستمر من حيث توقف :

ـــ في آدبازار تزعمت وتزوجت . أخذت امرأة عاقلة وجيدة .

احترمني الناس جداً ، وكانت دكاني لأعمال الدهان الأولى في تلك البلدة .

ـ ولماذا لم تبق هناك ؟

ـ أخ .. لماذا ؟ أقنعني الشيطان فتزوجت ثانية . ومنذ ذلك اليوم انقلب كل شيء رأساً على عقب . صحيح أنها أسعدتني في الأيام الأولى ، يجب أن أعترف ، لكنها كانت ذات أخلاق عجيبة ! ليس المهم أنها جعلتني أتشاجر مع زوجتي الأولى وأحالت بيتي جحيماً ، وانما لأنها كانت تخرج الى البلدة ، وكما يقولون : تحمل في احدى يديها قشاً وفي الأخرى ناراً ، أينما حلت تقوم المشاجرة وتخلق الكراهية . حتى أنها ، كما يقولون ، تجعل العينين تتشاجران وهما في رأس واحد . وهكذا صارت زوجتي الأولى يا اخوتي تطردني ، وكرهني العالم . وحينما أيقنت أنني ابتدأت أفقد وجاهتي وزبائني، وانني سأفقد رأسي أيضاً إذا استمر هذا الحال ، فقد بعت سراً وبأرخص الأسعار بضاعتي وآلاتي ، وانطلقت ثانية أجوب العالم .

ـ أخ ، خسارة يا أخي .

قال أحدهم بأسى .

ويهز الزعيم رأسه حزيناً ، وكأنه الوحيد العارف بمدى تلك الخسارة .

ـ ايه ، ولماذا يا هراب لم تطرد سَمك هذا وانما هربت أنت على رغم كل الغنى والجاه !

هذا ما قاله رجل من الحلقة ، مفتول العضلات ، بصوت أجش .

ـ أطرد ، أطرد ! ليس ذلك سهلا . لو أنك تعلم أية امرأة

كانت هي لما استطعت أن تفكر في الانفصال عن التصاقك بها وأنت ترى أنك بدونها لا تستطيع .

ـ أخ ، ماذا ؟ لكنت طردتها ولو أن الشمس بين فخذيها ، والقمر على بطنها .

قال الرجل مفتول العضلات ، وانفصل عن الحلقة غاضباً مشيحاً بيده .

ـ أخ ، المرأة .. المرأة .. ما هي المرأة ؟ عندما تطفىء الشمعة كلهن سواء .

ويستمر الرجل الصغير بقصه ، وكيف أنه ذهب حتى ترابيزنت وهناك تزوج من أرملة غنية .

ـ كانت تداريني كالعين في الرأس . عشت معها أربع سنوات في نعيم وعز ! ومن سوء حظي أنها مرضت وماتت . ومن شدة حزني عليها لم أستطع البقاء هناك . بعت كل شيء ، وانطلقت ثانية في هذا العالم . عملت في أماكن كثيرة ، وفي جميعها كانوا يبجلونني ويقدرونني من أجل يدي" الذهبيتين هاتين . وصلت الى سالونيك ، وهناك تزوجت .

ـ مرة أخرى !؟

ـ أربع صنعات أتقن ، واحدى عشرة مرة تزوجت .

ـ أخ ، أخ ! وماذا عملت ؟

سأل أحدهم من الحلقة .

ـ ماذا عملت ؟ خدعني القوادون أقرباؤها . لو أنني أستطيع

اليوم استيفاء نصف ما يدينون لي به لأصبحت رجلا غنيا، ولاستطعت بسهولة من أن أتحرر من علتي هذه، ولخرجت من هنا •

وكانت « العلة » تتلخص في اتهامه بترويج عملة مزورة • والأنكى أنها ليست المرة الأولى التي توجه إليه فيها تهمة كهذه • لقد أضحى الأمر بالنسبة إليه وكأنه مرض • فهو ما ان ينسحب من عبء تهمة كهذه، أو يقضي مدة سجنها، حتى يهرع للشروع بعمل مشابه، أو القيام بجرم آخر • وبما أنه لم يكن حاذقاً فقد كانوا يقبضون عليه فوراً• وخلال ذلك كله لا يتوقف عن الحلم «والكذب» حول الزواج السعيد و « صنعاته الأربع المهمة » • والآن يتوجس من حكم قاس وصعب، اذا ثبت جرمه، فيسرح ويخادع نفسه بالكذب، بأكاذيب نصفها حقائق، وحقائق نصفها أكاذيب، يقصها طلية اليوم، وكل يوم، أمام رجال يحيطونه مستعدين للضحك والاستهزاء • وما ان تنفرط الحلقة حتى تراه يحوم في الفناء كروح معذبة، مقترباً من حلقة أخرى • وبتعابير جنائزية بكائية على وجهه يستمع الى نكات يضحك الآخرون عند سماعها بصخب ورغبة لا تقاوم • يستمع الى كل ما يحكى منتظرا فرصته طويلا بقناعة وصبر• وحينما يرى اللحظة مناسبة تراه يقفز الى الحديث ميكانيكياً • فاذا ما ذكر أحدهم اسم دولة ما، مصر مثلا، فان زعيم يقاطعه بحكاية جاهزة :

ـ كان لي زوجة مصرية • كانت تكبرني وترعاني بحرص، ولو أنها كانت أمي لما حافظت عليّ هكذا • عشنا معنا سنتين • وكنت محترماً بين الناس، لكن ما باليد حيلة • في يوم ما •••

وثانية تظهر حكاية أخرى حول دولة وهمية أخرى وحول زواج مخفق، يستمع اليها بعضهم مع مقاطعات سخيفة مستهزئة، بينما

ينسحب آخرون فور بدئها وهم يلوحون بأيديهم من دون مراعاة لخاطر الزعيم ٠

ـ هذه زوجته الثامنة عشرة ٠

ـ الى اللقاء ! أخبرونا حينما ينتهي من حكايته ٠

لكن حكاية الرجل المعتوه والمزور الذي لا دواء له ، زعيم ، الحالم بحياة هادئة مع زوجة مثالية ، تضيع في صياحات وهرج صادر عن مجموعة رجال بالقرب منه اشتعلت فيما بينهم مشاجرة وارتفع سباب لا يمكن أن يوجد مثله بين أناس يعيشون خارج الفناء ٠



حتى موقع الفناء الملعون كان غريباً ، كمكان مختار لتعذيب المساجين واهلاكهم ٠ « كثيرا ما كان الراهب بيتر يعود لذلك محاولا وصفه بدقة » ٠ فمن الفناء لا تمكن رؤية أي شيء من المدينة أو المرفأ أو تلك الترسانة المهجورة على الشاطىء من تحته ٠ ما يرى فقط هو سماء كبيرة قاسية في جمالها ٠ وعلى البعد شريط ضئيل من الشاطىء الآسيوي الأخضر ، على الطرف الآخر لهذا البحر المترامي ، وبعض المآذن لمساجد غير معروفة ، أو تماثيل عملاقة تبرز من خلف الجدران ٠ كلها غير محددة ، غريبة وغير مسماة ٠ حتى يكتسب الانسان الغريب شعورا دائماً بوجوده على أرض جزيرة شيطانية ، خارج كل ما كان يعني الحياة بالنسبة له ومن دون أمل في رؤيتها ثانية ٠ أما المساجين الذين هم أصلا من مدينة استنبول فهم مع كل مصائبهم ، معاقبون بأنهم لا يسمعون ولا يرون شيئاً من مدينتهم ، انهم فيها ، لكنهم بعيدون عنها مئات الأميال ٠ وهذا

البعد المتخيل يعذبهم كعذاب البعد الحقيقي • لهذا سرعان ما يضغط الفناء الملعون الانسان من غير أن يشعر ويجعله عبداً له ، وهكذا يبدأ بالضياع • فينسى كل ما كان ، ويفكر بصورة أقل وأقل بما سوف يأتي ، حتى ينهار الماضي والمستقبل في حاضر واحد لحياة فظيعة لا انسانية في الفناء الملعون •

واذا حدث وغيمت السماء ، وابتدأت تهب الرياح الجنوبية الساخنة غير الصحية ، حاملة معها رائحة عفن البحر ووسخ المدينة والروائح الكريهة الآتية من المرفأ اللامرئي ، تصبح الحياة داخل الحجرات وفي الفناء غير محتملة بالفعل • فالرائحة المقرفة لا تهب من ناحية المرفأ فقط ، وانما تنتشر من كل الأبنية والأشياء ، حتى يبدو أن كل الأرض التي ضغط عليها الفناء الملعون تتفسخ ببطء ، ناشرة سموماً تفتك بالانسان ، حتى يغص باللقمة ، ويكره الحياة • ذلك أن الريح تهب كمرض عام لا مرئي يهبط على الجميع ، ليتشبع به حتى الرجال الرصينون الهادئون • فيبدؤون الهياج بحركات موتورة يغذيها مهيج غير ملموس باحثين عن المشاكل • وبشعور يملأ المساجين بأنهم باتوا ثقلاء حتى على أنفسهم ، يبدؤون التحرش بزملائهم أو بالحراس الذين هم أيضاً هائجون وغاضبون من كل شيء في تلك الأيام • فتثور الأعصاب حتى الألم ، أو أنها ترتخي بسرعة في انفجارات خطرة وتصرفات لا عقلانية • فتنشأ مشاجرات حادة لا سبب لها ، وتخلق مشاكل غير طبيعية حتى للفناء الملعون نفسه • وبينما يغضب بعضهم ويتشاجرون مع أي كان ، فان آخرين، كهولا ومنعزلين ، يقرفصون ساعات منزوين عن غيرهم ، وهم يفسرون ويتجادلون مع خصومهم اللامرئيين، بوشوشة غير مسموعة، أو بتعابير متشائمة وحركات هزيلة باليدين والرأس وكأنهم من الأشباح •

في تلك الساعات ينتشر جنون متوتر عام ، كعدوى ولهب سريع يتفشى من غرفة الى غرفة ، ومن رجل الى رجل . وينتقل من الناس الى الحيوانات والأشياء الميتة . فتتهيج القطط والكلاب ، وتنطلق جرابيع كبيرة كأسهم متسارعة بين حائط وحائط ، ويصفق الناس الأبواب بعنف ، ويقرعون بالملاعق على الأدوات المعدنية حتى الاعياء وهبوط الأدوات تلقائياً من اليدين . وخلال لحظات يهدأ كل شيء في انهيار عام مريض . وبعد ذلك على الفور يبدأ في بعض الحجرات المغلقة ، ومع أول خيوط الليل ، صراخ عام حتى يهتز الفناء كله ويرجع الصدى . وتشترك الحجرات الأخرى عادة في الصياح ، حتى يبدو أن كل من له صوت يصيح ويصرخ في الفناء الملعون بكل قوته ، في أمل مريض أن يتفجر ويتحطم كل شيء على رأس هذه الضوضاء ، وينتهي بطريقة ما مرة واحدة والى الأبد .

في تلك الساعات يهدر الفناء الملعون ويقعقع كخشخيشة أطفال ضخمة في يد عملاقة ، والناس بداخلها يتراقصون ، ينشجون ، يصطدم بعضهم ببعض ، ويرتطمون كالحبيبات داخل هذه الخشخيشة .

يعرف المدير ورجاله جيداً تأثير هذه الريح الجنوبية الجيفية الخطرة ، فيتحاشون الصدام مع المساجين قدر استطاعتهم ، فهم أنفسهم مصابون بهذه العدوى ، هائجون يحرسون البوابة ، ويضاعفون الحراسة، وينتظرون بفارغ الصبر توقف الريح الجنوبية. انهم يعرفون جيداً ، من خلال التجربة ، أن كل محاولة « لفرض النظام » ستكون خطرة ومستحيلة ، لأنه لا يوجد لديهم أصلاً من يقوم بذلك ، ولا يوجد من سيرضخ أو ينصاع .

وعندما تتغلب الريح الشمالية الصحية على الجنوبية ، وتصحو

السماء قليلا ، وتشرق الشمس وينظف الهواء، تنفرط أكوام المساجين مهللة في الفناء . يتمشون ويمزحون ويضحكون كمرضى تعافوا ، أو غرقى أنقذوا . وكل ما حصل خلال اليومين أو الثلاثة أيام الماضية يستسلم بهدوء الى النسيان ، حتى لا يمكن لأحد أن يتذكر شيئاً ولو أراد .

مدير هذه المؤسسة الغريبة والفظيعة هو لطيف آغا ، الملقب بكراكوز . لقد أصبح هذا اللقب منذ زمن بعيد اسمه الحقيقي والوحيد . حتى عرف بهذا الاسم ليس هنا فقط ، وانما بعيداً خارج أسوار الفناء الملعون . وكان بشكله وعاداته كلها وصمة هذا الفناء بالفعل .

كان أبوه معلماً في مدرسة حربية ، رجلا هادئاً محباً للكتب والتفكير ، تزوج في سن متأخرة ، ورزق بهذا الولد فقط . كان الصبي حيوياً وذكياً ، أحب الكتب ، وخصوصاً الموسيقى وكل أنواع الرقص . ودرس جيداً حتى سنة الرابعة عشرة . وبدا كأنه سيتبع خطى أبيه . لكن حيويته آنذاك ابتدأت تتحول الى شراسة ، وانقلب ذكاؤه بطريق عكسي . وابتدأ الفتى يتغير بسرعة حتى في شكله . لقد تضخم بسرعة ، وسمن بشكل غير طبيعي . وابتدأت عيناه العسليتان الذكيتان تهتزان وتلعبان وكأنهما فوق قدر من الزيت . ترك المدرسة ، وابتدأ بمرافقة عازفي المقاهي ولاعبي الخفة والسحرة والمقامرين والسكارى ومدخني المخدرات . ولم يكن بطبعه ذا موهبة أو شطارة ، ولا وله بالقمار والسكر . لكن هذا العالم وكل ما يغزل من حوله جذبه ، تماماً كما نفره كل ما كان ينتسب الى عالم الهادئين، ذوي المصائر العادية ، والعادات الرصينة ، والالتزامات النظامية .

ولأن الشاب فائر وعديم الخبرة وقع بسرعة في شرك أعمال

مشبوهة ومغامرات وقحة قام بها رفاقه واصطدم مع القانون ، وليس مرة واحدة ، انتشله أبوه عدة مرات من السجن ، مستغلاً مركزه ومعارفه من ذوي المراكز ، خصوصاً المدير العام للشرطة ، الذي كان صديقه القديم وزميل دراسته . « أمن المعقول أن يقتحم ابني منزلاً ، ويسرق التجار ، ويغتصب الفتيات ؟ » تساءل الأب المفجوع . فرد عليه المدير الكهل المخضرم بالحقيقة العارية لكن بهدوء « نعم يسرق . ليس بالضبط أنه يسرق أو يحتال على التجار أو يغتصب الفتيات بنفسه ، لكن أينما حصلت تلك الأمور تأكد من أنك ستجده قريباً منها . واذا تركناه هكذا فسوف يتوغل بنفسه في الخطأ . لهذا يجب علينا ايجاد حل له في الوقت المناسب » . وقد وجد مدير الشرطة « حلاً » تصوره الحل الوحيد الممكن ، بل الأفضل : أن يأخذ الشاب الذي سار في طريق الشر في خدمته . وكما يحصل عادة ، أصبح الرجل الشاب ذو المكانة بين المقامرين والمتسكعين شرطياً استنبولياً جيداً ومتحمساً .

لم يصبح هكذا رأساً ، في السنوات الأولى أحجم باحثاً عن مكانه ، ووجده هنالك حيث لا يتوقع : في العمل ضد رفاقه السابقين . فانقض بلا رحمة على المشردين والسكارى والنشالين والمهربين والتعساء من مختلف الأجناس والعاطلين في حارات استنبول المعتمة . كان يعمل بوله ، بكراهية لا تفسر ، لكن بشطارة ومعرفة بتلك الأوساط لا يمكن لأحد أن يجيدها مثله . لقد أعانته علاقاته السابقة في توسيع دائرة عمله ، فالعادة أن يستسلم المجرمون الصغار للمجرمين الكبار . لذا تكومت المعلومات عن الناس ، وقويت شبكة الاستعلامات وتوسعت . وقادته الحماسة البالغة ، والنجاحات في الخدمة بعد عشر سنوات الى أن يصبح مساعداً للمدير في هذا

« المعسكر » • وحينما مات المدير العجوز اثر جلطة قلبية ، كان هو الوحيد المؤهل لأن يخلفه • ومن ذلك الحين ابتدأت سيطرته المطلقة على الفناء الملعون • وها هي ما تزال مستمرة منذ عشرين عاماً •

أما المدير السابق ، وهو عجوز صلب وخبير ، فقد كانت له طريقة كلاسيكية قاسية في الادارة • كان الشيء الرئيس والأهم بالنسبة اليه هو تسوير هذا العالم الملعون واللاقانوني بمجمله وبدقة ، وعزله جيداً عن عالم القانون والنظام • لم يكن يهمه كثيراً جنوح الشخص فرداً • وخلال سنوات طويلة كان ينظر الى الفناء الملعون والى كل من يعيش فيه نظرته الى مكان للعزل ، ويرى سكانه مرضى خطرين من الصعب شفاؤهم ، ومن خلال ترتيبات معينة وعقوبات وخوف وعزل جسدي وأخلاقي ، يجب أن يحتفظ بهم أبعد ما يكون عن العالم المحترم الصحيح ، وأن يتراكوا لأنفسهم في كل شيء • ألا يسمح لهم بالخروج من دائرتهم ، وألا يلمسوا من دون ضرورة ، لأنه من ذلك التماس لا يمكن أن يتمخض أي شيء جيد ومعقول •

وقف المدير الجديد بكل قوته وكل تصرفاته ليطبق طريقة مختلفة • فمنذ السنة الأولى ، حينما مات أبوه ، باع لطيف بيت الأب الكبير والجميل في المحلة الجديدة ، واشترى أرضاً مهجورة كبيرة كبيرة قرب الفناء الملعون ، مليئة بالتماثيل ، تشبه جزيرة مهجورة أو مقبرة أثرية ، تفصلها عن الفناء الملعون أرض مزروعة بالقمح ، وغابة أشجار مشمرة ، ونظام متكامل من الأسوار والجدران العالية• وهنا ، بجانب المياه العذبة الوفيرة ، بنى بين الأشجار العتيقة بيتاً جميلا يشرف على الجهة الأخرى من الوادي ، وهو ما جعله يتقي شر الريح الجنوبية والروائح الكريهة غير الصحية التي تهب من المرفأ

والترسانة • لقد تمتع البيت بأفضلية كبيرة هي قربه الشديد من الفناء الملعون وبعده النائي عنه في الوقت نفسه • فهو بمنظره وهدوئه ونظافته يمثل عالماً مختلفاً بعيداً آلاف الأميال عن الفناء • وهو في الوقت نفسه في الجوار ، متصلاً مع الفناء اتصالا غير مرئي ، حيث يستخدم صاحبه طرقاً صغيرة لا تسلك الا له • وهكذا كان بامكان كراكوز دخول الفناء في أي وقت من اليوم من بيته دون أن يلاحظه أحد • « وبهذا لم يكن ممكناً معرفة ساعة تواجده أو عدمه ، وكيف ومتى يمكن أن ينبت هنا فجأة » • وقد استغل المدير هذه الامكانات دائماً • كان يراقب المساجين وحراسهم بنفسه ، ويعرف بالضبط كل واحد من الأسرى وماضيه وحاضره وجريمته • ولهذا كان محقاً حينما يقول « أعرف كيف يتنفس هذا الفناء » • وحينما لم يكن يعرف الشخص أو يميزه من رأسه كان يعرفه من داخله ، من روحه الشريدة المذنبة الخارجة عن القانون ، وكان بامكانه في أية لحظة أن يقف أمامه « ويتابع » حديثه حول جريمته أو جريمة غيره • وبالمثل ، بل بصورة أفضل ، كان يعرف كل حارس ، بصفاته الجيدة والسيئة ، واتجاهاته المعلنة والسرية •

هكذا كان يقول دائماً ويمتدح نفسه • وهكذا بقي طيلة عمره على اتصال ضروري بعالم الاجرام والجنوح الذي تركه منذ أيام الصبا والى الأبد ، وظل كذلك مسيطراً عليه وبعيداً عنه ، يفصله مركزه وجنائنه الكثيفة وأسواره وأبوابه غير السالكة لأحد غيره •

عمل كراكوز منذ البداية « من الداخل » • وكان بطريقته غير الطبيعية في العمل أبشع وأقسى وأخطر ، وبشكل ما أفضل أحياناً وأكثر انسانية من المدراء سابقيه • ومن هذه المتضادات المتداخلة التي لا تنتهي ولا يمكن القبض عليها كانت تتركب علاقته وصلته بالفناء

وكل البشر العابرين به وكأنه نهر عكر بطيء • حتى لم يستطع أقدم وأدهى ضيوف الفناء أن يمسكوا بخيوط لعبة كراكوز أو يفهموها • لقد كانت لعبة محض شخصية ، مليئة بانعطافات وأفكار جريئة غير متوقعة ، وفي أحيان كثيــرة مضادة لكل قوانيــن العمل البوليسي وطرقه ، ولكل العادات الاجتماعية العامة وأعرافها • واكتسب منــذ السنة الأولى لقب كراكوز[1] • وبالفعل ، فقد كان الفناء بكل من عاش فيــه ، وبكل ما حدث داخلــه ، مسرحاً كبيراً يمثل حيــاة الكراكوز •

وبما أنه ترهل وسمن في سن مبكرة ، وكان مشعراً وأســمر اللون ، فقد كهل بسرعة ، على الأقل شكلاً • وكان بمقدور شكله أن يخدع الانسان أيضاً • فهو على وزنه البالغ حوالي مائة حقة فانه ، إذا دعت الحاجة ، يمكن أن يصبح حيوياً وسريعاً كابن عرس • لقد استطاع جسده الثقيل المترهل في لحظات كتلك أن يخلق وينمي قوة كثور • واختبأ خلف الوجه الميت الناعس والعيون المغمضة انتباه يقظ وتوثب شيطاني وأفكار مدبرة • ولم يتهيأ لأحد أن يشاهد مطلقــاً أية ابتسامة على ذلك الوجه ذي اللون الزيتي الداكن ، حتى ولا عندما كان كل جسد كراكوز يهتز من ضحك داخلي متفجر • كــان بامكان وجهه أن ينشد ويتشنج ، يتغير ويتبدل ، من تعبير غضب جامح وعذاب فظيع الى تفهم عميق وعزاء صادق • كانت لعبة العيون في ذلك الوجه احدى مهارات كراكوز • حيث كانت العين اليسرى دائماً وأبداً مغلقة تماماً ، لكنها تشعرك من بين أجفانها المتلاصقــة بنظرة يقظة حادة كسكين • وكانت العين اليمنى مفتوحة بتوسع وكبيرة ، وكأنها تعيش بمفردها ولنفسها ، وتتحرك كحزمة نور مبهر

(١) شخصية خيالية من مسرح خيال الظل التركي • (المترجم)

وبامكانها أن تخرج مسافة غير معقولة من محجرها وأن تعود بسرعة منكفئة فيه ، مما كان يسبب لدى الضحية شعوراً بأنها مُهاجمة ، فتنعبط ، وتتسمر في مكانها ، وتشعر بأن شيئاً يخترقها ليقرأ أدق أوعمق أفكارها وآمالها وخططها • ومن تلك العين ، اكتسب الوجه المشوه البغيض في لحظة شكلا فظيعاً وشكلا مضحكاً لقناع خيالي في لحظة أخرى •

كان السجناء في اثناء احاديثهم عن كراكوز ، يمحصون بكل التفاصيل الموجودة فيه ، وكانوا غالبا وكثيرا ما يتكلمون عن عينيه • بعضهم أكد انه لا يرى شيئاً بعينه اليسرى ، وآخرون على العكس انه لا يرى بتلك العين اليمنى الجاحظة • ولم يستطيعوا خلال عشرين سنة ان يتفقوا حول ذلك • لكنهم كانوا جميعاً يرتجفون من نظرة تلك العينين ، ويتهربون منها إذا كان ذلك ممكناً اصلا •

لم يكن في شكل كراكوز أي قدر من الهيبة العثمانية التي كان يتحلى بها المسؤولون ، حتى ولا بطريقة حديثة أو حركاته • لقد كان في كل حالة ومع كل شخص مشتبه به يلعب لعبة خاصة ، من دون حياء أو اعتبار ، من دون احترام لهذا الشخص أو لنفسه • كان يعمل دائماً بشكل مفاجىء ، بموهبة وإلهام • كان يُغير بأي وقت من الليل أو النهار مقترباً من الشخص أو من مجموعة من السجناء •

ـ بخي ••• بخي ••• بخي •• بخي •• ي •• ي •• !

كان يطلق حروفه ومقاطعه تلك بارتفاعات وطبقات صوتية مختلفة ، كل مرة بصورة أخرى ، ودائماً كان يتعجب ويعتب على الرجل وعلى نفسه وعلى كل « الأشياء » التي بينهما •

ـــ ماذا ؟ أما زلت تتعفن هنا ؟ بخي •• ي •• ي •• ! حدثني كيف حدث ذلك ؟

هكذا كان يبدأ الحديث الذي لم يكن بالامكان أبداً معرفة طريقة استمراره • كان يمكن أن يكون استجواباً طويلا لمعرفة كل التفاصيل ، مع تهديدات صعبة تبقى على الأغلب تهديدات فقط ، لكنها من النوع الذي يمكن أن يتحول أي منه الى حقيقة فظيعة في اللحظة نفسها• وأحياناً تأخذشكل إقناع مصرّ خطر لا تمكن مقاومته، وأحياناً شكل مسرحية مضحكة لا روح فيها ، من دون غايةأو معنى •

وإذا ما حاول الرجل المعذب المضغوط اظهار براءته ، راغباً في التخلص من ضغط كراكوز ولو لحظة ، ووقف يتوسل محاولاً من خلال بكاء صادق أو كاذب تأكيد براءته ، فان كراكوز كان يغير من وضعيته ، ويصفع بيده على جبينه :

ـــ ماذا تقول ، لست مذنباً ولا مخطئاً ؟ أخ ، كيف استطعت بحق الله أن تقول لي ذلك الآن بالضبط؟! بخي•• بخي•• ي•• ي!! لو أنك اعترفت لي بذنبك لاستطعت اطلاق سراحك لأن المخطئين هنا كثيرون • كلهم مذنبون ، ولهذا نحن بحاجة الى واحد بريء بالتحديد • لذا لا يمكن لي اطلاق سراحك • لو أنك لم تصرح بذلك بعظمة لسانك لاستطعنا فعل شيء من أجلك ، أما هكذا والآن فيجب أن أمكث هنا ريثما أجد رجلا بريئاً مثلك أستبدلك به • لهذا اجلس واسكت !

وبينما يتابع كراكوز جولته في الفناء برفقة بعض الحراس كان يستمر بلعبته وصراخه ، حتى يبدو وكأنه يصرخ على نفسه ، بصورة يهتز معها كل شيء ،وبشكل لا يمكن ايقافه •

ـ ما أريده فقط هو ألا يقول لي أحد منكم عن آخر بأنه بريء • لا • لأنه لا يوجد هنا أبرياء • لا أحد هنا بطريق المصادفة• ما دام أحدكم قد عبر عتبة هذا الفناء فهو ليس بريئاً • لقد أذنب بشيء ، حتى ولو كان ذلك في المنام ، أو يمكن أن أمه حينما حملت به قد فكرت في شيء سيء على الأقل • كل منكم يدعي بالتأكيد أنه ليس مذنباً • لكنني وخلال كل تلك السنوات التي قضيتها هنا لم أجد حتى الآن انساناً أُدخل في هذا المكان من غير سبب وذنب• من يأتي الى هنا فهو مذنب ، أو احتك بمذنب • بخي ! لقد أطلقت سراح عدد كبير من الناس • أحياناً بأوامر من فوق ، وأحياناً على مسؤوليتي • نعم • لكن كلاً منهم كان مذنباً • هنا لا يوجد بريء، وانما يوجد آلاف من المذنبين الذين ليسوا هنا ولن يأتوا أبداً ، لأننا لو أدخلنا كل مذنب في هذا المكان لتوجب أن يكون هذا الفناء من البحر الى البحر • أنا أعلم بالناس ، كلهم مذنبون ، لكنه لم يكتب على كل منهم أن يأكل الخبز هنا •

وبالتدريج يصبح هذا المونولوغ المحكي وهو سائر ، أسرع وأكثر حيوية ، حتى يتحول الى صراخ مجنون وسباب لكل سجين في هذا الفناء ولكل من يعيش خارجه • وتحت كل هذه الخشونة في صراخه ، وكل هذا الاحتقار لكل شيء ، يرتعش في صوته تشنج بكائي غير مسموع ، وأسف لأن الأمور بهذا الشكل •

ويصيح « البريء » متأكداً الآن أن مكوثه هنا قد يستمر أسابيع كثيرة من دون أن ينظر اليه كراكوز ثانية •

يحدث أحياناً ، بعد عدة أسابيع من تلك الحادثة ، أن تأتي مجموعة من الأقرباء المحترمين لشاب من الأغنياء ، مقبوض عليه مع رفاقه السيئين ، لكي يتوسلوا الى كراكوز ليطلق سراح الفتى

لأنه بريء بالفعل ، فتراه يتغير فجأة ، وكأنه تذكر لتوه شيئاً هاماً ، يفكر ويبدو جدياً ، يغمض عينيه الاثنتين لحظة حتى يتطاول وجهه، وتتغير ملامحه ، ثم ينحني باحترام تجاه الراجين ، ويرفع صوته :

ــ هل قلتم لأولئك الذين سجنوه أنه بريء ؟

ــ قلنا • كيف لم نقل ! لكن ••

ــ آه لقد أخطأتم • بخي •• بخي •• ي •• ي •• ! هـذا سيء ، فهم الآن لا يلقون القبض إلا على الأبرياء ، بينما يطلقون سراح المذنبين • هذا هو النظام الجديد • وبما أنكم صرّحتم بأنفسكم أمام المسؤولين بأنه بريء فيجب اذاً أن يبقى هنا •

وينظر الناس بعضهم الى بعض مرتبكين في قتاعة هادئة ، متوقعين أن يضحك كراكوز ويعيد الأمر الى نكتة عابرة• ويضحكون قليلا ، بينما يبقى هو جادا باصرار ، باردا ومتزناً • وهكذا يودعهم• ويبقون فترة طويلة وهم غير قادرين على استعادة رشدهم • يحكون القصة أمام أصدقائهم ، يذهبون ويحتجون عند معارفهم من المسؤولين الذين يرفعون أكتافهم ويشيحون بأيديهم كأناس يؤمنون بشدة بأن داخل كراكوز يتربع الشيطان نفسه ومن خلفه يتكلم ، ويا ليته شيطان واحد •

كما يمكن لكراكوز غداً ، وهو يتجول في الفناء ، أن يقابل ذلك « البريء » وفجأة يتابع معه حديثه الذي بدأه قبل ثلاثة أسابيع • يقترب منه بسرعة ، منتصباً في وجهه ، ناظرا اليه كأنه يريد اجتراره •

ــ بخي ! ماذا تظن ؟ الى متى ستبقى تنشر روائحك الكريهة هنا ؟ وكأنه لولاك لا توجد روائح نتنة بما فيه الكفاية ! انصرف

من هنا . هل سمعت ؟ اجمع أسمالك حتى لا تراك عيناي ثانية ، لأنني عندئذ سأصدر أوامري بجلدك كقطة .

ويجمع الشاب ، الذي تحجر للوهلة الأولى من شدة المفاجأة، قوته ، ويتسرب من الفناء ، تاركاً أشياءه الصغيرة ليتناهشها الحراس والمساجين .

وكان بامكان كراكوز أن يقضي ساعات مع رجل متهم بسرقة أو احتيال أو اغتصاب أو خرق كبير للقانون أو جريمة قتل ، بأن يهدر أو يصيح أو يهمس . أن يلعب دور المغفل أو المنتقم الشديد أو الانسان الرحيم المتفهم ، وكل ذلك بالتناوب ، وبتلك الصراحة والاقناع . أحياناً كان يتصارع مع الرجل أو يعانقه ، يجلده أو يداعبه ، وفي كلتا الحالتين ينتفض في وجهه قائلا : « اعترف ، أبعد الله عنك الأحزان ! اعترف وخلص رأسك ، لأنه كما ترى ستذبل من الهموم ، اعترف ! » .

وحينما يصل الى هدفه ، ويسحب الاعتراف ، ويحصل على المعلومات حول المشاركين أو المكان الذي خبأ فيه المال المسروق، كان يفرك كفاً بكف ، كرجل أنهى أخيراً عملا وسخاً غير شريف ، فيزيل كل الأقنعة فجأة لعدم لزومها ، ويسلم القضية للمتابعة النظامية . لكنه حتى في ذلك الوقت لم يكن لينسى أو يعتق الرجل الذي اعترف نهائياً . بل كان على الأغلب يعينه على اعترافه ويهون عليه .

لا يمكن فهم لعبته الغريبة التي لا نهاية لها . ويبدو أنه في حياته كلها لم يصدق أحداً حقيقة ولو مرة واحدة ، لا المتهم ولا الشهود ولا حتى نفسه . ولهذا كان يشعر بضرورة الاعتراف ،

كنقطة وحيدة دائمة يستطيع من خلالها الحفاظ على عدالة حقيقية ، ونظام كيفما كان ، في هذا العالم الذي به كلهم مذنبون ويستحقون العقاب • لهذا كان يبحث عن ذلك الاعتراف ويصطاده ويعتصره من الانسان بجهد يائس ، وكأنه يحارب من أجل حياته الخاصة ، ويسوي حساباته التي لا تسوى مع الشر والانحراف والاحتيال وقلة النظام•

لقد بدت لعبته تلك في أكثر الحالات لا معنى لها ، غير مفهومة ولا مناسبة • فهي على فقرها وتقلبها كانت جديدة ومحسوبة بفطنة ، ودائما وصلت الى أهدافها • لم يكن فيها اعادة ولا روتين• كانت دائماً جديدة ، تنمو لحظتها ، من تلقاء نفسها • لهذا أربكت حتى الأقسى والأعتى والأكثر خبرة من ضيوف الفناء الملعون • وباتت أحياناً غير مفهومة حتى بالنسبة الى الذين يعملون مع كراكوز منذ سنوات • فنسجت حولها الحكايا في مدينة استنبول • لقد بدت تصرفاته عبثية لا انسانية لدرجة كبيرة أحياناً ، ولينة بشكل غير متوقع ، مليئة بالتعاطف والتفاهم أحياناً أخرى •

لهذا كانت الشكاوى كثيرة ومتنوعة ضد كراكوز، حتى طرحت مسألة تغييره • لقد تباحث الوزراء في المجلس بشأنه أكثر من مرة • وفي النهاية كان يبقى كل شيء على حاله • كانوا جميعهم يعرفون أن كراكوزاً مدير مزاجي غريب يعمل على مزاجه وهواه • لكنهم كانوا موقنين أيضاً بأنه ليس من السهل ايجاد رجل مثله ، يقف في وجه عالم اللصوص والمشردين والمنحرفين من كل الأنواع ، ويعمل ليل نهار ليحتفظ بهم في فنائه على هذه الصورة من الحجر والنظام• وهكذا بقي كراكوز في مكانه ليدير الفناء الملعون على طريقته •

لقد وجد العالم كله بما فيه عالم الفناء الملعون أن هذا الحل هو الأفضل • حيث كان كراكوز دائماً مجالا للأحاديث والغيبة

والاستهزاء والسباب والكراهية وأحياناً للهجوم الجسدي .
« صارت شتيمة ابنة كراكوز في كل مناسبة عادة دائمة وقديمة في الفناء » . حيث يتابع الناس أخباره كالمسحورين ، مفسرين كل خطوة من خطواته ، وكل نظرة وكل كلمة . يخافون منه ، ويتهربون من لقائه حينما يستطيعون وقدر ما يستطيعون . لكن أولئك الناس أنفسهم كانوا يتكلمون عنه وكأنهم يغبطونه بشكل غير معترف به، ويتحدثون عن أفظع انتصاراته . لقد تعودوا كلهم على كراكوز ، وتوحدوا به على طريقتهم . انهم يشتمونه كما يشتمون الحياة التي يحبونها والقدر المكتوب . انه جزء من لعنتهم ، وهم في تلك الحالة من التوتر والكراهية الدائمة ، حتى أضحوا شيئاً منه ، وأصبح من الصعب عليهم تخيل الحياة من دونه . واذا كان لا بد من وجود الفناء الملعون ، وعلى رأسه المدير ، فان هذا الرجل وبهذه الطباع هو الأفضل . وعلى الرغم من غرابة طريقته في العمل وفظاعتها عند بعضهم فهي الطريقة التي يوجد فيها دائماً احتمال للمفاجأة ، سواء بمفهومها الجيد أم السيء . انها ورقة يانصيب دائمة تتمخض عن عدم استقرار دائم للمساجين . ومن كل ما يتوالد عن ذلك يصبح كراكوز نفسه أهون وأكثر احتمالاً ، أو على الأقل يبدو لهم أن الأمر كذلك، ما داموا جميعاً يحبون القمار، ويتهربون من الاستقرار الصعب دائماً بالنسبة اليهم . لقد اعتقد كل أفراد هذا العالم الشرير المنحرف والمنتقى بأن كراكوز هو شيء يخصهم وحدهم . انه لهم : « الخنزير » ، « العلقة ومصاص الدماء » ، « الكلب وابن الكلب »، لكنه ملكهم .

هذا هو لطيف آغا ، المسمى كراكوز . قد يكون من الأفضل القول إنه كان هكذا فهو الآن كهل تقريباً ، ازداد وزنه ، وخسر

الكثير من حيويته السابقة ، وصار يتعب ، لكنه ما زال يفاجأ الفناء ويذهله بخياله وحسن تدبيره ، بتصرفاته الغريبة الطريفة ، وأحكامه وحلوله الصحيحة كالنبي سليمان . وها هو يجلس الآن هناك ، على تلك الضفة الجميلة والصحية لهذا الشاطىء ، في منزله الجميل الذي زوج فيه أولاده وزوج منه بناته .

وبين آونة وأخرى فقط كان يظهر بداخله كراكوز القديم ، حيث يقوم بعمل خارق أمام سكان الفناء الذين يعجبون به ، ويخافونه برهبة ، مثلما كان يفعل قبل عشرة أو خمسة عشر عاماً .

وبخليط غريب من الاعجاب والمرارة ظلت تستشعر بعد كل تلك السنين في صوت وكلمات الراهب بيتر ، الذي كان يتحدث مفصلا عن « الشرير العجوز » حينما كان يسحب الاعتراف — على مرأى منهم — من رجل أرمني موقوف بسبب سرقة معدن النقود من مصنع صك العملة الحكومي .

كان المعدن الثمين يتناقص ببطء ، لكن بشكل دائم ، من مصنع صك العملة ، وأخيراً وصل الأمر الى السلطان نفسه ، فهدد وهو في أوج غضبه بأنه سيعاقب المسؤولين الكبار أنفسهم أشد العقاب اذا لم تتوقف السرقة ويقبض على الفاعلين وتعوّض خسارة الدولة . عندئذ سجنت الحكومة المرتعدة عديداً من المشتبه بهم والعاملين بالمعمل نفسه ، وبعد ذلك سجنت عائلة أرمنية غنية كاملة ذات فروع كثيرة يعمل كل أفرادها بالتجارة ، بعد أن قادت خيوط التحقيق الى دكاكينهم . فاقتيد ثمانية ذكور بالغين من تلك العائلة الى الفناء الملعون ، وهناك ، رتب هؤلاء الرجال الأرمن ذوو اللون الأسمر ، المائلون الى السمنة ، حياتهم كأناس أغنياء من كل النواحي الممكنة والتي استطاعوها . استجلبوا أكواماً وأكواماً من الأثاث

والأسرّة والأغطية ، وجلب لهم يومياً طعام كثير ، ولم يلمسهم أحد أو يستجوبهم • وحينما بدا أن الأمر كله سينتهي عند هذا الحد قام كراكوز باحدى بطولاته التي كان يفعلها أيام الشباب •

في أحد الصباحات ، وبينما كان رأس تلك العائلة العجوز الربوي البدين كريكور جالساً في الفناء على مقعد محشور في تجويف داخل حائط السجن ، ظهر المدير فجأة ، وجلس بجانبه على المقعد الصغير الذي كان يتسع لشخص واحد بشق النفس • ومن دون أن ينبس بكلمة ، ابتدأ يضغط بكل ثقل جسمه على كريكور ، حاشراً إياه باتجاه الحائط ، يضغطه ويعتصره ، وهو الذي كان أصلاً يتنفس بصعوبة • وحينما لصقه معتصراً في الزاوية الحجرية ، قال له من دون مقدمات ، بصوت هادىء لكنه فظيع :

ـ اسمع ، المسألة كبيرة ، والأمور سلطانية ، ويجب أن تحسم بسرعة • فالمسؤولون الكبار ، وهم أناس بريئون حتماً ، سيفقدون رؤوسهم من أجلكم • أنت أرمني ، يعني خبيث ولك نظرة ثاقبة • وأنا أساوي على الأقل ثلاثة من الأرمن • لهذا تعال لنجد نحن « الأربعة » مخرجاً من هذه الصرعة المتشابكة والخطيرة جداً • هؤلاء اللصوص الكثيرون المحتجزون هم لا شيء ، ولن يستطيعوا تعويض الخسارة ، لهذا سيدفعون رؤوسهم • أما أنتم الذين التهمتم كل شيء فقد اشتريتم المسروقات بأبخس الأثمان ، وما يزال بامكانكم تخليص رؤوسكم ودفع ديّة أنفسكم • أعلم أنك لست المذنب ، بل هو شخص آخر من عائلتك • لكن ريثما يتم ايجاد كل ما سرق وتتم اعادته الى خزينة السلطان فأنت هو المذنب • هيا بنا لننهي ذلك • وإلا بديني وايماني سيسقط لحمك عنك معذباً ، ولن يبقى عليك منه مقدار ما على جسد طفل ابن عاشرة •

لم يستطع الأرمني العجوز المضغوط أن يلتقط أنفاسه أو يتفوه بكلمة ، في حين استمر كراكوز بكلامه هامساً . ذكر أولاً مبلغاً نقدياً خيالياً يجب أن تدفعه العائلة للحكومة . ومن سماع هذا المبلغ اختلطت الرؤية عند العجوز ، وأظلمت الدنيا واختنق حلقه ، فاستمر كراكوز بضغطه تجاه الحائط .

ـ لا شيء . هذا كله لا شيء . الخسارة أكبر بالتأكيد . انها أكبر من هذا المبلغ ، وهذا تقريباً حوالي ربع أملاككم المنقولة . وبما أنكم تعطون معلومات كاذبة دائماً عن أملاككم ، وتصرحون على الأكثر بربع ما تملكون حقيقة ، فهذا يعني أنه جزء من ستة عشر جزءاً . فاسمع نصيحتي وادفع . وبهذا قد تهدأ الأمور . لكن إذا لم تدفع ...

عندئذ عرض كراكوز على هذا التاجر الذي كان يسمعه مغمض العينين ، بتنفس سطحي متسارع ، كل خطته الشيطانية .

لقد ظهرت في بعض بيوت الأرمن في الأيام الأخيرة حادثتان مرضيتان ظن أنهما قد تكونان طاعوناً . ولم يبق إلا أن يبلّغ عنهم حتى يتم حجرهم كلهم من صغيرهم الى كبيرهم ، حيث يتم سجنهم في المستشفى الأرمني للأمراض السارية . وهناك ستنتقل العدوى الى نصفهم على الأقل ، وسوف يموتون حتماً . وفي ذلك الوقت لا بد أن أناساً من الخارج أو من الخدم سيغيرون على هذه البيوت المهجورة والدكاكين ، ويسرقون منها ما هو مرئي وما هو مخفي . ثم سيأتي كل ما هو حتمي وما يعمل عادة مع المصابين ومع بيوتهم وأملاكهم . وفيما هو يتحدث عن ذلك كان كراكوز يضغط الأرمني المغمى عليه باتجاه الحائط ، والأرمني يحاول أن يقول شيئاً ، أن يحشرج ، وهو يقلّب عينيه في محجريهما ، مطالباً بفترة

قصيرة ومكان صغير يفكر فيهما ويتفق مع أقربائه • لكن كراكوز لم يسمح له بهذه ولا بتلك ، وهو يعيد عليه بهمسه الفظيع أن كل شيء يجب أن يُحل الآن ، في هذه اللحظة وعلى هذا المقعد •

لم يتمكن الكثير من المساجين الذين كانوا ينسحبون أمام كراكوز دائماً الى حجراتهم أو الى أبعد زوايا الفناء أن يسمعوا من كل ذلك أو يروا شيئاً • لكنهم أيقنوا أن الذي بين كراكوز وكريكور العجوز إنما هو حساب عسير يصفى في ذلك الانخفاض الحائطي • وبعد انتظار طويل شاهدوا المدير وهو يذهب الى مكتب المراقب الواقع فوق الباب الرئيس ، وكريكور ينهض متعثراً وينهار ، ثم يتوقف ، وكأنه في غيبوبة محمومة ، وهو يتجه الى الغرفة التي سُجن بها أقرباؤه • ومن هناك أمكن سماع خلاف وشجار حادين مريرين ، ومقاومة لا جدوى منها ، صادرة عن الأفراد الشباب في العائلة • ثم ساد الصمت فجأة • وذهب كريكور العجوز وهو بين اثنين من أبنائه الشباب يسندانه الى غرفة المراقب ، حتى يتفق مع كراكوز حول طريقة الدفع •

وأطلق سراح جميعهم خلال عدة أيام ، وذلك بمعدل رجلين أو ثلاثة رجال منهم دفعة واحدة • وعلى مدى أسابيع طويلة ظل الفناء يتحدث عن ذلك ، وكيف استطاع كراكوز ابتزاز مبلغ ضخم من كريكور • وكرر الناس القصة بحذافيرها ، بتفاصيل لا يمكن أن يعرفها إلا هما ، والتي علم السجناء بها بطريقة عجيبة أو انهم أضافوا اليها ونمقوها •

كثيراً ما تحدث الراهب بيتر عن كراكوز بشعور هو خليط من المرارة والغضب ، وبشيء من اعجاب لا شعوري • بتعجب لم يكن هو نفسه يدركه ، لكن برغبة ضرورية لعرض صورة ذلك المخلوق

الرهيب بأبلغ الكلمات ، حتى تصبح واضحة لسامعها ، وحتى يتعجب هو نفسه عند سماعها . كان يعود اليه دائماً ولو بكلمات تهكمية ، وهو يشعر بأن كراكوز لم ينته بعد .

لقد تحدث بمثل تلك الحيوية ، وبالتفاصيل أيضاً ، عن حياة الفناء كله ، وعن بعض الناس المتعبين المضحكين ، الباعثين على الأسف ، المرضى داخل الفناء ، أولئك الذين كانوا أقرب من غيرهم له ، وكان أكثر معرفة بهم من المجرمين والقتلة والأشرار السفلة الذين كان يتحاشاهم قدر استطاعته .

على كل حال يبدو أن ذلك كله لم يكن الأهم ، ولم يأخذ حيزاً مهماً من ذاكرة الراهب بيتر عن الفناء الملعون ، الذي كثيراً ما تكلم عنه للشباب الجالس بجانبه في الأيام الأخيرة من حياته .



الفصل الثاني

وكما يحدث في كل مصيبة أو شر ، كانت الأيام الأولى في الفناء الملعون هي الأصعب والأقسى ، وخصوصاً في فترات الليل الذي لم يكن محتملاً • وحتى يتقي الراهب بيتر قدر استطاعته المشاجرات والمعارك وكل تلك المناظر الليلية البشعة ، اختار ركناً بعيداً في حجرة السجن الكبيرة ، وراء المدخنة الخربة الضخمة • وهناك انزوى مع القليل من أغراضه التي حملها معه • وكان هناك قبل مجيئه رجلان بلغاريان « عابران » أيضاً ، مهيآن للمنفى • استقبلا الراهب بيتر بترحاب ، ولو بالقليل من الكلمات • وكانا سعيدين حتماً أن يحتل هذا المكان رجل هادىء كهذا ، بلباس مدني ، آت من البوسنا التي لم يكونا يعرفان عنها أي شيء ، ولا سألا ، وانما خمّنا أن هـذا « العابر » يشكو من الضيق ولا شك ، مثلهما في هـذه الزحمـة البشعة والخطيرة •

كانا من الأغنياء كما هو ملاحظ • وكانا ــ قدر ما استطاع أن يفهم ــ ضحية ثورة قامت في أنحائهمـا بسبب الضريبة الباهظـة والأتاوة والطريقة غير المنتظرة في جمعها • وظهرا وكأنهما نوع من أنواع الرهائن • ولم يكونا يتكلمان مطلقاً عن ذنبيهما • كانا لطيفين وخائفين ولو لم يرتسم ذلك على وجهيهما : لا الخوف ولا أي شيء آخر • كل ما كان عليهما وفيهما كان ممتنعاً ويقظاً • محزمان دائماً

بالأحزمة ، لابسان ، منتعلان ، حتى لا تفاجئهما الدعوة للانطلاق وهما غير جاهزين .

وبينما كان السجناء الكبار والصغار من مدينة استنبول يعتقدون بأن الفناء الملعون جزء من حياتهم ، وهكذا يتصرفون ؛ فان هذين الرجلين لم يكونا كالأحياء بل كانا مقيمين هنا فقط ، وصابرين . لقد بقيت حياتهما هناك في بلغاريا ، وهما الآن بانتظار النطق بالحكم ، وسوف يعيشان ـ اذا قدرت لهما العودة ـ وهما بعيدان عن بيتيهما وأهلهما وكأنه لا حياة لهما ، بل ولا ضرورة للحياة . هكذا كان كل « العابرون » . كان أحدهما يخرج من الحجرة فقط ، وهذا نادراً ما يحدث مدة لحظة واحدة ، في حين يبقى الآخر جالساً على الحصيرة بجانب الأغراض . وكانا من عادتهما أن يجلسا أو يستلقيا ساكتين بلا حراك . ولم يكونا يرفعان نظرهما من دون ضرورة . كانا يأكلان قليلاً في الخفاء ، ويشربان الماء فقط . وفي غضون ذلك يستديران الى طرف . لم يكونا يتكلمان مع أحد . وتعجبا جداً ، وأبديا أشد الاستياء لأن الراهب بيتر يشارك المساجين نكاتهم وأحاديثهم في الفناء ، حتى وصل الأمر به الى التحدث مع شخص مشبوه . طلبا من الراهب بيتر عدم التدخين في الظلام لأن ذلك يستجلب ضيوفاً غير مرغوب فيهم .

على كل حال استقبلوا بعد عدة أيام ضيفاً تحول فوراً الى جار . وكان هنالك آخرون أيضاً جذبتهم تلك الزاوية التي يجلس بها « عابرون » مادئون منعزلون ومرتعبون .

وحينما فكر الراهب بيتر مراراً ، فيما بعد ، لم يستطع بأي شكل أن يتذكر بالضبط الساعة التي جاء بها ذلك الرجل ، ولا كيف أتى ، وهو يبحث عن مكان صغير ، وما الذي قاله وقتئذ ـ فعند

الناس الذين يصبحون قريبين منا ننسى عادة تلك التفاصيل التي حدثت في اللحظة الأولى • ويبدو لنا وكأننا كنا نعرفهم أصلاً ، أو كأنهم كانوا معنا منذ الأزل • ومن كل ذلك لا يلتمع أحياناً في الذاكرة إلا بعض الصور غير المترابطة ــ •

في أول ساعات الغروب ، انحنى فوقهم خيال طويل محني لرجل يبدو شاباً • رمى على احدى يديه غطاء وأمسك بالأخرى حقيبة جلدية • تبادل البلغاريان نظرات سريعة منحرفة فيما بينهما أولاً ، ثم مع الراهب بيتر • وقد ارتسم على وجهيهما تعبير بعدم الارتياح والحذر مشوب بتعاطف منفّر •

كان القادم تركياً ! اتخذ موضعه من غير نحنحة أو القيام بأية حركة، حتى لم يكن يسمع صوت تنفسه • وحينما كان يصحو خلال تلك الليلة « ولا يوجد هنا من لا يصحو كثيراً وغالباً في أثناء النوم» كان ينتاب الراهب بيتر شعور بأن « الجديد » الراقد بجانبه لا ينام• وعندما صحا الراهب بيتر وقت الفجر ، ومن خلال نور الصباح الباهت ــ المبتهج الغني حتماً في الخارج ــ حرف نظره الى الجهة اليمنى ، الى المكان الذي نام به التركي القادم ليلة البارحة • كان أول ما رآه كتاباً ليس بالكبير ، مغلفاً بجلد أصفر • اجتاحه شعور قوي دافيء بالسعادة انتشر في أوصاله كلها • إنه شيء من ذلك العالم الانساني الحقيقي الضائع الذي بقي بعيداً خلف هذه الجدران ، شيء جميل لكنه غير مؤكد كرؤيا • طرف بعينيه ، فبقي الكتاب في مكانه ، وكان حقيقة ــ كتاباً • وحينما ذهب بنظره قليلا الى أبعد رأى أن ذلك الكتاب يرقد على حجر رجل أخذ وضعية هي بين الاستلقاء والجلوس ، مستنداً الى صندوق يبدو أنه أحضره معه ليلة البارحة ، وبجانبه حقيبة سفر بلون كاشف من جلد صناعي ،

وقد افترش غطاء قاتم اللون ، لماعاً ، يؤكد لناظره أنه يبعث الدفء، صرياً كفرو ثمين رقيق . ولم يكن الراهب بيتر يفكر عادة بثمن الأشياء من حوله وشكلها ، لأن أصله وتربيته واحتياجاته القليلة لم تكن تدعوه الى ذلك ، ولم يكن يولي تلك الأمور أية أهمية . ومع ذلك فهو لم يستطع إلا أن يلاحظ الآن ما لاحظه . ذلك أنه لم يشاهد في حياته أشياء عادية ، ذات استعمال يومي ، مصنوعة بمثل هذه المهارة ومن مواد جيدة كهذه . ولو أنه بقي في بوسنا ، ولم ينحشر نتيجة حظ شرير في هذا الفناء ، لما عرف أو صدق أنها موجودة فعلاً .

ذهب بنظره الى أبعد . كان وجه الرجل مفاجأة جديدة . وجه شاب طري ، انتفخ قليلاً ، أبيض ، شاحباً كشحوب الحجرة . وهو عكس كل ما يمكن أن يتوقع هنا ، ذو ذقن وبرية شقراء عمرها حوالي عشرة أيام ، وشاربين منكسين شقرتهما فاتحة . وقد ظهرت على وجهه دوائر كبيرة مريضة قاتمة اللون ، برزت منها عينان مكدومتان لامعتان من الرطوبة والنار . لقد بدا ذلك جلياً للراهب بيتر ، وهو الذي رأى في حياته الكثيرين من المرضى ومن كل الأنواع . لم يكن قد رأى ذينك العينين بالضبط وانما ما يشبههما .

هنالك بعض الناس ، الخائفون من شيء ، الخجلون منه ، الراغبون في اخفائه ، ولهذا السبب بالضبط يحاولون بنظرتهم جذب أنظار الآخرين وتركيزها ، رغبة منهم في تقييد تلك الأنظار ، وعدم السماح لها بالذهاب والتوغل الى أبعد فاحصة متمعنة في خطوط وتعابير وجوههم أو أجزاء من جسمهم أو ثيابهم . نظر الشاب هنيهة نظرة فاحصة هادئة في الوجه العريض المنفتح للراهب بيتر ، بشاربيه الكثين الأسودين ، وعينيه الواسعتين الشهلاوين المتباعدتين ، ونظرته الهادئة .

بدأ الحديث تلقائياً ، وهذا أفضل أنـواع الحديث ، أولاً بشيء كالتحية ، كلمات قليلة غير محددة ، يبحث عنها ، ويتم فحصها في مبادرة للتقارب • وكان هذا كافياً للراهب بيتر ليتحقق بـأن التركي ليس متعجرفاً ولا منفـّراً كما يمكن أن يظن • منغلق نعم ، لكن بطريقة أخرى •

وهكذا التقيا وافترقا حتى الظهيرة عدة مرات • وفي كل مرة كانا يتبادلان عدة كلمات غير مهمة • هكذا هي أحاديث السجون ، تبدأ ببطء واحجام ، وبعدها ، ولعدم توافر زاد جديـد ، سرعان ما تنطفىء بسهولة في سكوت شكاك يختبر به كل واحد جميع ما قاله وكل ما سمعه من زميله •

في زهاء فترة الغداء أضاع كل منهما الآخر من مجال نظره • تابعا حديثهما بعد الظهر • حتى وثـق كل منهما بأن الآخر يجيـد القراءة بالايطالية • تبادلا بعض الكلمات بتلـك اللغة وكأنهمـا يمزحان • لكن ذلك فصلهما على كل حال عن بقية الناس من حولهما وقرّب بعضهما من بعض • تحدثا عن مدن مختلفة ، وأماكن متفرقة من العالم ، ثم عن الكتب • لكن بما أنهما لم يقرآ الكتب نفسها فقد تعثر الحديث قليلاً • ذكرا اسميهما • كان اسم الشاب « جميل » ، وذكر الراهب بيتر اسمه وأخفى لقبه ، ولم يتفوه أي منهما ولو بكلمة عن نفسه أو عن السبب الذي أفضى به الى هنا • كان كل ذلك في حدود دوائر مغلقة على هامش الحياة • وكان الشاب التركي أكثـر حرصاً ، يؤكد بصوته العميق الرصين وبهزات رأسه الهادئة كل مـا كان يقوله الراهب بيتر • كان يؤكد كل شيء من دون تفكير ، ولم يكمل من حديثه أية فكرة بدأها ، حتى ولا العادية منها • كان يتوقف

عادة في منتصف الجملة ، هارباً بنظره دائماً الى البعيد • وكان حديث الراهب بيتر أكثر حيوية ، ذلك أنه كان سعيداً بلقائه هذا الزميل ، لكنه سرعان ما فكر بداخله : أنا أتكلم مع رجل مريض ولا شك •

ولم يكن من الضروري معرفة الناس بهذا القدر الذي عرفهم به حتى يستنتج هذا الاستنتاج •

ـ نعم • نعم • ـ كان التركي الشاب يقول بطريقة غريبة قليلاً في الاحترام • لكن الـ نعم نعم تلك كانت تؤكد أفكار الراهب بيتر عنه أكثر مما تؤكد كلمات الراهب بيتر نفسها •

لقد بدت تلك الأحاديث أياً كان نوعها ، وكيفما تهيأت ، وكأنها أحاديث هنيئة لكلا السجينين ، عزيزة عليهما كهبة غير متوقعة ، فهي الشيء الأكثر ندرة هنا • لهذا كانا يعيدانها ويستمران بها بعد كل انقطاع •

وكان التاجران البلغاريان ينظران إليهما باستغراب حقيقي ، بل بشك خفي أكثر مما هو استغراب • وحينما يخيم الظلام ، كان الراهب بيتر والشاب التركي يتناولان العشاء معاً • والأصح أن الراهب بيتر كان وحده يتناول الطعام لأن الشاب لم يكن يأكل شيئاً ، بل كان يمضغ اللقمة طويلاً وهو ساهم • وكان الراهب بيتر يقول له مباشرة وبصراحة :

ـ جميل أفندي ، لا تؤاخذني ، لكن رفضك للطعام سيضر بك •

وكان يؤكد له أن وجود الانسان في محنة يوجب عليه أن يقبل على الطعام أكثر ليقوى ويكون أكثر اشراقاً مما هو في وضع سعيد •

ــ نعم • نعم • ــ كان يرد الشاب ، لكنه لم يكن ليكثر من طعامه بعد ذلك •

استمرت الأحاديث بينهما في يوم الغد • كانت أحاديث مطولة، أكثر تلقائية وحيوية • وكان الوقت يمضي بصورة أجمل وأسرع حتى حلول المساء • وعند هبوط أول خيوط الليل يتباطأ الحديث ويقل • كان الراهب بيتر يتكلم فقط • وحتى تلك الـ نعم ، نعم ، الشاردة ، كانت لا تقال أحياناً ، حيث ينسحب الشاب الى داخل نفسه أكثر ، مؤكداً كل ما يسمعه برفع جفنيه الثقيلين ، وانزالهما دون أن يشترك فعلياً بأي حديث •

ومن اللون الارجواني المرتسم على صفحة السماء ، ورؤوس تلك التماثيل القليلة الموجودة خارج السور العالي ، كان يعرف أن الشمس بدأت غروبها بسرعة هناك في مكان ما على الطرف الآخر من المدينة الكبيرة • وفي وقت ما كان الفناء يمتلىء بانعكاس أحمر يتفرغ بسرعة كوعاء مربع مقلوب ، ليمتلىء ببطء بظلال أول خيوط المساء•

طرد الحراس المساجين الى حجراتهم ، حتى بدا هؤلاء كقطيع متفرق لا ينصاع • كانوا يهربون أمامهم، يختبئون في الأماكن البعيدة من الفناء لأن أحداً منهم لم يكن يريد توديع النهار والذهاب الى حجرات خانقة • وكان هناك ضرب وصياح •

في تلك اللحظة ركض أحد الحراس باتجاه الحجرة التي ما زال الراهب بيتر والشاب يجلسان أمامهما وهو يصيح باسم الشاب ، وعلى مبعدة منه ركض حارس آخر وهو يصيح بالمثل ، لكن بصوت أعلى • وكما هي العادة في أماكن كتلك ، فان الصيحة القصيرة تكون أسرع كلما كان وراءها أمر حاد صادر من الأعلى ، سريعة بالشر

وبالخير ، يعتمد ذلك على ماهية الأمر • وفي تلك الحالة كان من المفروض أن تكون جيدة • وبلطف يندر هنا دعا الاثنان الشاب ليذهب فورا الى غرفة أخرى حددت له ، ساعداه على جمع أغراضه، وأوحى ذلك بأنه سيذهب الى الأفضل •

تلقى الشاب هذه الرعاية غير المتوقعة كأمر ، من دون تعجب أو سؤال • وقبل الانطلاق استدار نحو زميله في الحجرة وكأنه يريد أن يقول له شيئاً علنياً واضحاً أول مرة ، لكنه ابتسم فقط ، وهز برأسه كأنه يحييه من بعيد •

وهكذا تودعا من دون كلمات ، كصديقين جيدين حميمين •

في تلك الليلة فكر الراهب بيتر طويلاً في التركي الغريب • انه تركي فعلا وكأنه ليس بتركي ، لا شك أنه انسان تعيس بالتأكيد ، وحينما كان يشرد بخياله أحياناً وهو نصف نائم يتهيأ له أنه ما زال بجانبه ، مستيقظاً ، لكنه هادىء مع كتابه وأشيائه الجميلة بشكل غير عادي • وكان في الوقت نفسه يشعر بوضوح أنه قد ذهب ، وبأنه لم يعد موجوداً ، فيشعر بشديد الأسف لذلك • وحينما نجح في أن ينام حقيقة ـ والنوم عنده إذا استمر كان عميقاً وثقيلاً دائماً خالياً من الأحلام والوعي بذاته وبالعالم من حوله ـ غرق الجار الذي كان ينام على يمينه في ذلك الحلم بعد أن أمعن في التفكير فيه • لكنه عندما كان يصحو خلال الليل يجتاحه شعور غير واضح وبعيد ، لكنه حي ، بأسف شديد يعوده من أيام الشباب حينما كان يضطر الى الافتراق عن رفاقه الجيدين ليبقى مع عالم الغرباء غير المكترثين ، المضطر ـ بحسب عمله ـ أن يعيش ويعمل معهم •

توقفت تلك الأحلام المتماوجة والأوهام حينما أشرق الصباح،

ولم يبق على وجه النهار الأبيض إلا الحقيقة العارية : الجار لم يعد هنا . مكانه فارغ . أحس بعدم الراحة على يمينه ، وبقهر هذه الحياة المليئة بعذابات كبيرة وصغيرة ، وبالمنغصات من كل الأشكال . وعلى يساره كان التاجران البلغاريان الصامتان أبداً ، والمستعدان للانطلاق دائماً .

ولم يكد الشاب يفترق عنه حتى امتلأ مكانه . احتل المكان رجل نحيف رقيق ، غير حليق ، مهمل ، ذو شعر أجعد أسود . اعتذر مراراً وهو يتكلم بكثرة وبسرعة . قال إنه لا يريد أن يثقل على أحد، لكنه في الوقت ذاته لا يستطيع تحمل قلة حياء أولئك الذين نام بينهم حتى الآن ، حتى بات مضطراً الى العثور على مكان أهدأ بين أناس أفضل . أنزل سلته المصنوعة من قش مجدول وبعض ثيابه العتيقة الرقيقة ، واستمر في الحديث .

لم تكن العادة هنا أن يبدأ الانسان كلامه قبل عرض مقدمات رسمية . لكن هذا الرجل كان يتكلم عن كل شيء فوراً وكأنه بين معارفه القدامى الموثوقين . وقد لوحظ أنه يتكلم من أجل نفسه أكثر مما يتكلم عن الموضوع الذي يرغب الخوض فيه ، أو لأولئك الذين يتوجه اليهم ، ما دام ذلك غير ممكن بطريقة أخرى .

انزوى التاجران وانكفآ داخل نفسيهما أكثر ، وانحشر بعضهما بجانب بعض . واستمر الراهب بيتر يستمع متأملاً في ذلك الرجل غير العادي ، حتى يبدو أنه شجع بهيبته ثرثرته . وفكر : ما أشبهني بصديقي الراهب رافي ، الذي كان بامكانه الاستماع الى أي كان وتحمله . وكان يقول مازحاً : « أستطيع العيش من دون الخبز ولا أستطيع من دون الحديث » . كان الرجل القادم يتكلم .

كان يهودياً من بلدة سميرنا • بدا وجهه الأسمر حزيناً ، بأنف كبير ، وعينين واسعتين ببياض أصفر مدمى • بدا كله حزيناً ، مهموماً وخائفاً • لكن حاجته إلى الكلام كانت أكبر وأقوى من مشاكله وخوفه الكبير • وبدا كأنه يستمر بحديث بدأه ليلة البارحة حينما حدّث الراهب بيتر — ابان خروجهما من الحجرة الى الفناء ، بحيوية وصوت غلب عليه الهمس — عن نفسه وعن مصائبه •

— إضافة الى أن الانسان قد سُرق ، فهم يتهمونه ويسجنونه! وأرجوكم كيف يمكن أن نتواجد نحن هنا مع هؤلاء الأشرار ؟ انني أتساءل !

وابتدأ يعدّ كل الأسئلة التي طرحوها عليه • وكانوا يسألون عما هب ودب • ومع أنه كان ينظر حوله خائفاً لم يتوقف عن الكلام• « لقد قادته ثرثرته الى هنا » هذا ما فكر به الراهب بيتر ، وهو يسمعه بأذن واحدة • كانت ثرثرة بشعة متعبة من فم هذا الرجل العجيب وهو يذكر اسم جميل أفندي •

— رأيته البارحة وهو ملتجيء عندكم ، أنتم الناس المحترمين • لقد أعطوه الآن غرفة في المكان المسمى بالفيلا البيضاء ، هناك جانب المدخل الرئيس ، قرب أماكن نوم الحرس والاداريين ، هناك حيث توجد غرف خاصة منفردة ، وطعام مميز للمساجين المحترمين • انه لأمر فظيع فعلاً : أإنسان كهذا في ذلك المكان !؟ •

انتفض الراهب بيتر :

— هل تعرفون أنتم •• جميل أفندي ؟

— أنا ؟ كيف لا ! أنا لا أعرفكم ، اعذروني ، لقد التقينا ••• هكذا •• لا أعرفكم ، لكنني أرى أنكم رجل شريف ونظامي ، وهذا

بالنسبة إلي ... لا .. أنا لا أعرفكم أنتم ، ولكنني أعرفه ؛ أعرفه بشكل جيد ، من المشاهدة ، كل بلدة سميرنا تعرفه ، في سميرنا كل شيء معروف .

ومنذ اليوم الأول عرف الراهب بيتر الكثير عن التركي الشاب وعائلته ، بل وعن السبب الذي قاده الى هذا البيت الغريب . كله طبعاً بالشكل الذي أمكن معرفته من حاييم هذا « هذا هو اسم الرجل من بلدة سميرنا » . انه خليط ونبش وتكسير تناسى بعضه ، وبعضه أعاده ثلاث مرات ، حيوياً ، منمقاً ، غير واضح دائماً ، بتفاصيل مختلفة ومكثفة ومضافة ، اذ لم يكن باستطاعة هذا الرجل المضطر الى الكلام دائماً التكلم عن أمر واحد فقط . كان يتوقف هنيهة ، يفكر عابساً بحزن وكأن الأمر نفسه يدعوه إلى العذاب ، بل ويقنعه بأنه ليس من المستحسن ولا من الحكمة التكلم هكذا عن جميعهم بما هب ودب وفي كل مكان . لكن رغبته في الثرثرة عن حياة الآخرين ــ خصوصاً أولئك الذين كانوا بحكم مكانتهم الاجتماعية على درجة أعلى منه ، أو كانت مصائرهم هي الأغرب ــ كانت أقوى من كل شيء .

كان واحداً من أولئك الذين يقضون حياتهم من دون هدف ، في خلاف خاسر منذ بدايته مع الناس والمجتمع الذي ينتمون اليه . يتملكه عشق جامح لقول كل شيء وتفسيره وكشف كل أخطاء البشر وذنوبهم ، وتحريف كل ما هو جيد ، والاعتراف بكل ما هو شرير ، وبهذا ذهب بعيداً ، أبعد مما يراه أو يعرفه أي انسان عادي صحيح. كان يعرف أن يقص الأحداث التي جرت بين رجلين من دون شهود بمنتهى الوضوح والتفصيل والدقائق . ولم يكتف بوصف الناس الذين يتكلم عنهم فقط ، وانما كان يدخل في أفكارهم ورغباتهم التي

يكتشفها هو . كان يتكلم بالنيابة عنهم . وكان يملك موهبة عجيبة في تقليد أصوات الناس الذين يتكلم عنهم بتغيير صوته قليلاً . فيصبح لحظة ما والياً ، ولحظة شحاذاً ، وأحياناً ملكة جمال يونانية . وبقليل من حركات جسمه أو بعض عضلاته فقط يمثل طريقة وسير أو حركة رجل ما أو وضعيته ، أو حركة حيوان ما ، أو حتى كيف تبدو الجمادات الميتة .

وبهذه الطريقة العجيبة كان حاييم كثير الكلام ، صاخبه ، حول العائلات اليهودية الكبيرة والغنية أو اليونانية ، بل وحتى التركية من مدينة سميرنا ، متوقفاً دائماً عند الأحداث الكبيرة أو الأشياء الضخمة ، منهياً كل حديث كهذا بصيحات غريبة ، بل بابتهاج : « ايه؟ آه ! » التي يقصد بها تقريباً : « ايه ، انظروا ماذا يوجد في هذه الحياة ! وما الذي نعنيه حياتي الفقيرة وحادثتي البسيطة بالنسبة اليهم والى مصائرهم المتشابكة ! » .

وهنا حيث ينتهي حديث ما يبدأ آخر من دون نهاية .

« ترانا نميل دائماً ، بدرجة أقل أو أكثر ، للحكم الصارم على أولئك الذين يكثرون الكلام . خصوصاً عند حديثهم عن أشياء لا تخصهم مباشرة . وننظر اليهم كثرثارين ومحدثين مملين . ولا نفكر آنذاك أن تلك الصفة الانسانية المعيبة ، الانسانية وكثيرة الحدوث ، هي صفة لها جوانبها الجيدة أيضاً . إذ كيف يمكن لنا من دونها معرفة نفسيات الآخرين وأفكارهم ، طريقة تفكيرهم في الآخرين وبالتالي فينا أنفسنا ، وفي الأوساط الأخرى والأماكن الأخرى التي لم نرها في حياتنا ولن تكتب لنا فرصة رؤيتها أبداً . ولو أنه لم يوجد أناس كهؤلاء ، تحدوهم رغبة عارمة ضرورية في عرض ما رأوه وسمعوه شفهياً أو كتابياً ، أو ما جربوه وعاشوه أو فكروا فيه ولو

قليلاً ، لما عرفنا الكثير ، لكن بما أن عرضهم للأشياء غير متكامل ، ملون برغباتهم الشخصية وضروراتهم ، فمن الممكن أن يجعله غير صحيح لهذا نبدي تفهمنا من خلال خبرتنا ونحاكمهم مقارنين بعضهم ببعضهم • فاما أن نحتضنهم ، أو نلفظهم كلياً ، أو نبقى بين بين • وهكذا يبقى من الحقيقة البشرية شيء مهم لأولئك الذين يسمعونهم بصبر أو يقرؤنهم » •

هكذا فكر الراهب بيتر في داخله وهو يستمع مصغياً الى حديث حاييم الموسع المهول « عن جميل أفندي وقدره » ، الذي كانت تزيد من بطئه يقظة حاييم الغريبة • فهو بالاضافة الى كل حيويته ورغبته اللاهبة في الكلام كان يخفض صوته أحياناً الى درجة السكوت ، وهو يرسل نظراته الفاحصة من حوله كانسان ملاحق جداً ، وشكاك في كل شيء •

* * *

الفصل الثالث

تحدث حاييم عن جميل قائلاً ، انه رجل من « دم مختلط » • من أب تركي وأم يونانية • كانت أمه ملكة جمال يونانية ذائعة الصيت • وعلى الرغم من أن مدينة سميرنا هي مدينة اليونانيات الجميلات ، فهي لم تر مثل ذلك القوام ، وتلك العظمة ، وذينك العينين الزرقاوين • زوجوها وهي ابنة سبعة عشر عاماً من يوناني كثير الغنى • « ذكر حاييم كنية يونانية طويلة ، ونطقها كما ينطق عادة اسم مملكة عامة معروفة » ، ورزقا بمولود واحد فقط ، كان أنثى • وحينما بلغت الطفلة عامها الثامن مات اليوناني موتاً مفاجئاً • وسارع أقرباؤه الى خداع الأرملة الشابة في محاولة لنهش كل ما استطاعوا من التركة • دافعت المرأة عن نفسها • وسافرت من أجل ذلك حتى أثينا لتنقذ التركة هنالك على الأقل • وفي أثناء عودتها بالسفينة الى مدينة سميرنا ماتت طفلتها موتاً مفاجئاً ، من غير مقدمات •

كان البحر هائجاً ، والسفينة تبحر ببطء ، ومدينة سميرنا ما تزال بعيدة • وكانت القوانين تنص صراحة على أن ترمى جثة الطفلة في البحر • وهذا ما أراده البحارة باصرار ، أولئك المؤمنون ــ حسب اعتقاد قديم ــ بأن الجثة على ظهر السفينة إنما تجلب القدر الشرير،

لأن روح المرحوم تسحب السفينة نحو القعر كالرصاص . وعارضت الأم المفجوعة بكل آلامها هذا القرار ، وطلبت باصرار أن تترك الجثة لها لكي تدفنها بنفسها حينما تصل الى مدينة سميرنا ، وحتى تعرف على الأقل مكان قبر طفلتها الوحيدة . تعذب قبطان السفينة طويلاً معها . وحينما وجد القبطان نفسه في وضع صعب — بين ألم الأم التي لم يطاوعه قلبه في جرحها ، وبين القوانين الصارمة التي لا يجرؤ على مخالفتها — أوجد بالتشاور مع ضباط السفينة خدعة مناسبة . أصدر أوامره بصنع صندوقين كنعشين متماثلين ، وضع في أحدهما جثة الطفلة ، وأنزله البحارة سراً في البحر ، وملأ الثاني بثقل مناسب ودقة بالمسامير ثم لحمه وسلمه الى الأم ، وكأنه قد رضخ لرجائها . وحينما وصلوا الى مدينة سميرنا حملت الأم الصندوق ، ودفنته في المقبرة .

حزنت الأم حزناً مريراً وطويلا على طفلتها . وكانت تزور ضريحها كل يوم . وعندما ابتدأت وهي الصبية الجميلة ، تسلو بمرور الوقت خسارتها قليلا ، حدث شيء فظيع غير متوقع . لقد علمت زوجة الضابط الأول للسفينة التي ماتت الطفلة على متنها من زوجها سر الخدعة التي تمت على ظهر السفينة بقصد نبيل ، وما تم بالنسبة الى جسد الطفلة الميتة ، وباحت بهذا السر ذات يوم لإحدى أفضل صديقاتها . وبعد شجار نسائي عادي فضحت تلك الصديقة بغبائها ، ورغبة منها في الانتقام ، سرّ ذلك أمام الآخرين . وبطريقة وحشية غير مفهومة وغير واضحة وصل الأمر الى الأم . مما دفع بهذه المرأة التعيسة الى الجنون من حزنها ولوعتها . ركضت الى المقبرة ، وحفرت بأظافرها الأرض فوق القبر ، واضطر الناس الى ردعها عما عزمت بالقوة ، وفيما بعد الى حبسها ، بعد أن أرادت القفز

في البحر وراء طفلتها • كان جنوناً حقيقياً • واقتضى الأمر أن تمرّ عدة سنوات أخرى حتى تشفى المرأة من أحزانها الجديدة ، ولم تشف شفاءً تاماً في حياتها •

لقد تقدم الكثيرون من اليونانيين لطلب يد هذه الأرملة التعيسة الجميلة ، لكنها كانت ترفضهم بالتدريج ، وهي المطعونة المتألمة من أقربائها ومن كل أبناء جلدتها • وبعد عدة سنوات تزوجت، في خضم استغراب الناس عموماً برجل تركي • كان غنياً يكبرها بسنوات كثيرة ، ذا مركز مرموق ومتعلم ، احتل في أيام شبابه مراكز هامة في السلك الحكومي ، كان اسمه طاهر باشا ، وكان يعيش في عزلة : صيفاً في مزرعته بجانب سميرنا ، وشتاء في بيته الواسع بالمدينة • ولم يطلب من زوجته أن تغير ديانتها ، لكنها لم تكن تظهر سافرة في الشارع • ومع ذلك فقد أثار هذا الزواج استنفاراً اكبيراً بين اليونانيين • ولم يكن زواج اليونانية الصبية بباشا تركي في الستين من عمره ، على الرغم من كل اتهامات النساء اليونانيات ، سعيداً فقط ، وانما كان خصباً أيضاً • ففي أول سنتين رزقا بولدين ، بنت ثم صبي • كان الصبي أقوى وذا نمو جيد ، وكانت البنت ضعيفة فماتت في سنها الخامسة من مرض مجهول بعد رقاد استمر يومين فقط • فوقعت الأم التي لم تشف كما يجب من حزنها الأول في سوداوية صعبة وغير قابلة للشفاء • ومحصت الأمر حتى أيقنت أن في موت طفلتها الثانية أصابع قوة عليا ، وأحست بأنها ملعونة وغير أهل للأطفال ، فأهملت زوجها وابنها كلياً ، وابتدأت تهزل وينشف عودها بسرعة ، وجاءها الموت في العام القادم رحمة بها •

كان الطفل الذي أسموه جميلاً ، جميلا بالفعل • « اكتسب

جمال أمه لكن بشكل رجولي » عاقلا وذكياً ، نامي الجسم ، وكان السباح الأول بين أقرانه ، والفائز بكل مباريات المصارعة • لكنه ابتدأ وهو في سن مبكرة باهمال الرياضة واللعب واللهو مع أقرانه، مركزاً كل انتباهه على العلم والكتب • وكان أبوه يشجعه على ذلك ، يوفر له الكتب والمدرسين ، ويؤمن له سفرياته المتعددة ، حتى تعلم اللغة الاسبانية عند أحد السفرديم وهو العجوز رايين في مدينة سميرنا •

وفي أحد الشتاءات مات طاهر باشا العجوز • فبقي الشاب وحيداً مع أملاك ضخمة ، من دون خبرة أو أقرباء مقربين • وكانت مكانة طاهر باشا أكبر معين وحماية له • فقد عرض عليه أن يتهيأ للخدمة في السلك الحكومي ، لكنه رفض • وللفارق عن أقرانه فهو لم يختلف في حياته مع أحد من أجل النساء ، ولا من أجل صحبتهن • لكن ما حصل معه ذلك الصيف في أثناء مروره بسور احدى الحدائق الصغيرة المتفتحة ، قلب الأمور، حينما شاهد الشاب فتاة يونانية • فبدله هذا الحب الصاعق تماماً وكلياً • كانت الفتاة ابنة تاجر يوناني صغير • وقد قرر الشاب أن يأخذها ، تماماً كما أخذ طاهر باشا أمه ذات يوم • قدم كل شيء دون أن يضع أي شرط •

وقد رغبت الفتاة التي رأته مرتين أو ثلاث مرات في الذهاب إليه ، ووجدت طريقة أسرّت بها إليه رغبتها • لكن الأبوين كانا وبكل اصرار ضد اعطاء ابنتهم لتركي ، وأي تركي ، ذلك الذي كانت أمه يونانية • وتعاطف معهم في ذلك الحي اليوناني كله • وخيّل إليهم كلهم أن طاهر باشا ، على الرغم من موته ، يريد وللمرة الثانية أن يختطف يونانية أخرى • أما والد الفتاة ـــ وكان

تاجراً بخيلاً قصير القامة فقير الروح ـ فقد تصرف كرجل هبطت عليه فجأة حالة من الكبرياء والبطولة والرغبة في التضحية في غمرة من جنون • فرد يديه كالمشبوح ، وصاح أمام أبناء جلدته : « أنا رجل صغير بسركزي وثروتي ، لكنني لست صغيراً بدياتني وخشيتي من الله • وأفضل أن أخسر عمري وأن أرسل ابنتي الوحيدة الى البحر على أن أعطيها لكافر » • وهكذا تصرف ، وكأن الرجل ودينه هما الأهم وابنته أمر ثانوي لا أهمية له على الاطلاق • ولم تكلف تلك البطولة الصادرة عن ذلك التاجر الصغير في شارع منحدر الشيء الكثير • ولم تتهيأ له الفرصة ليغدو الشهيد المعذب• لقد زوجوا الفتاة قسراً من يوناني خارج مدينة سميرنا ، بصمت وسرية ، من دون عرس • وأخفوا مكان الانطلاق ويومه • لقد خافوا أن يختطفها جميل • لكن جميلاً كان قد انسحب في فترة سابقة محتضناً جراحه • وعندئذ فقط استطاع رؤية الحقيقة العارية كلها وهي التي لم يكن ليحلم بها قبلاً وهو شاب غني هائم• وأدرك ما يمكن أن يفرق الرجل عن المرأة التي يحبها ، ويفرق بشكل عام الناس أحدهم عن الآخر •

قضى جميل بعد ذلك سنتين في مدينة استنبول بقصد الدراسة، ثم عاد الى سميرنا متغيراً وقد بدا أكبر سناً • ووجد نفسه وحيداً، فما يبعده عن اليونانيين كثير ، وما يربطه بالأتراك كان قليلا • وأصبح أصدقاء الصبا ، الذين قضى معهم قبل عدة سنوات فقط وقته في اللعب واللهو ، أغراباً بعيدين ، وكأنهم أناس من منبت آخر • وغدا رجلاً يعيش مع الكتب • وأضحى وهو في الرابعة والعشرين رجلا وحيداً منعزلا غنياً لا يعرف أماكن وماهية ما يملك،

ولا كيف يتصرف بتلك الأملاك أو يديرها • سافر على طول شاطىء آسيا الصغرى • ذهب الى مصر وجزيرة رود هارباً من أولئك الذين ينتمي اليهم بالاسم والمكانة الاجتماعية ، الذين بدؤوا ينظرون إليه نظرتهم إلى رجل غريب مغترب ، وصاحب الناس العلماء فقط ، بقطع النظر عن أصولهم ودينهم ومن هم •

وفي العام الماضي انطلقت الاشاعات في بلدة سميرنا ، اشاعات غير محددة ولا واضحة ، كهمسات تقول إن ابن طاهر باشا قد ضربته الكتب في عقله ، وانه قطعاً ليس في حالة طبيعية وصحيحة ، لأنه لم يعد انساناً كما يجب • وقيل أنه في أثناء دراسته لتاريخ الامبراطورية التركية قد « درس » وتخيل بأن في داخله إنما تسكن روح أحـــد الأمراء التعساء ، وبات يؤمن فعلا بأنه أحد السلاطين غير المتوجين •

ـــ ايه ؟ آه ! ـــ قطع حاييم روايته هنيهة ، دون أن يغيب عنه شرح عادات بلدة سميرنا ، التي لم تلطخه وحده وتلفظه الى هـــذا السجن الكريه ، وانما ـــ كما هي الحقيقة ـــ قد فعلت الشيء نفسه مع أناس شرفاء لهم مكانة اجتماعية رفيعة كجميل أفندي ، ثـــم سرعان ما تابع :

ـــ حينما أقول إن الاشاعات ابتدأت تدور في بلدة سميرنـــا فلا أريد حتماً أن يتبادر الى أذهانكم أن ذلك يسري على جميـــع من في هذه البلدة كثيرة السكان • لا • اذ ما هي بلدة سميرنا ؟ • حينما تنظر إليها من الأعلى ، من السهل الواقع تحت الهضبة المخملية ، تبدو لك وكأنه لا نهاية لها • وبالفعل فهي مدينة واسعة ذات بيوت كثيرة وسكان كثيرين • لكن إذا أردت الحق فهي لا تتجاوز مائة عائلة • خمسون منهم عائلات تركيـــة ، ومثلهم مـــن اليونانيين ، والقليل من عناصر السلطة حول الوالي ومدير المرفأ ، وكلهم ألف

ـ ألفا نسمة . هذا كل شيء . وهو من الأهمية بمكان ، لأنه يقرر أموراً كثيرة وجوهرية ، ما دام الباقون مهتمين بالعمل والنتج فقط حتى يؤمنوا حياتهم وحياة عائلاتهم . أما مائة عائلة فهم إذا لم يترافقوا ولم يتزاوروا ، يعرف واحدهم عن الآخر كل شيء ، لأنهم يراقبون بعضهم ويمعنون النظر ، بل انهم يمحّصون ويقيس بعضهم بعضاً ، ويتتابعون هكذا من جيل الى جيل . والى هذه الأقلية انتسب جميل سواء من ناحية أمه أم أبيه . ذلك أن القدر غير الطبيعي لعائلته ، وطريقة حياته الغريبة ، كانت تجذب منذ بعيد انتباه الآخرين وتثير فضولهم . وفي بلدة سميرنا تُحكى الأخبار وتُعاد، وتكثر الغيبة ، بل ويبالغ فيها اكأي مكان آخر في العالم ، بل وأكثر من ذلك .

أما جميل ، الذي لم يعد يشارك أقرانه في حياتهم في غضون السنوات الأخيرة ، ولا يختلط ويعيش بين الشباب السادة الأغنياء، فكان يُحكى عنه في غيابه بما فيه الكفاية ، وبالضبط بسبب ذلك الغياب . فتحدث الناس عن دراساته التاريخية باستغراب أحياناً وباستهزاء أحياناً أخرى .

وفي شرفة جلس عليها عشرة شبان محترمين ، يدخنون ويشربون مع العدد نفسه من الفتيات المتحررات من المرفأ ، ذكر أحدهم جميلاً وحبه التعيس وطريقة حياته غير العادية . قال أحد أصدقائه ان جميلا يدرس حياة بيازيد الثاني[1] بتفاصيلها ودقائقها، خصوصاً حياة أخيه السلطان جم[2] . وانه من أجل ذلك سافر الى

---

(١) اصل الاسم بايزيد وليس بيازيد كما هو شائع .

(٢) جم : الأخ الوحيد للسلطان بيازيد . والاثنان ابنا السلطان محمد الفاتح . (المترجم)

مصر وجزيرة رود ، وهو يستعد الآن للسفر الى ايطاليا وفرنسا .
وتساءلت الفتيات ترى من هو السلطان جم هذا . ففسر الشاب لهن ذلك بأنه الأخ الوحيد لبيازيد نفسه ، وعدوه اللدود ، الذي خسر المعركة إبان الصراع على العرش ، فهرب الى جزيرة رود ، واستسلم للأمراء المسيحيين . وقد احتفظ به هؤلاء الحكام المسيحيون بعد ذلك أعواماً طويلة في الأسر ، مستغلينه دائماً ضد الامبراطورية العثمانية والسلطان الشرعي بيازيد . وهناك مات في أحد الأمكنة. وقد حمل السلطان بيازيد جثة أخيه المتمرد ، ودفنها في بورصة ، وما يزال مزاره فيها هناك .

في تلك اللحظة تدخل أحد الشبان المائعين ، واحد من أولئك الذين يسبب لهم جنوح خيالهم وحديثهم غير المعقول أبلغ الضرر لأنفسهم ، وغالباً لغيرهم .

ــ بعد اخفاق جميل في حبه لليونانية الجميلة ، أحب التاريخ الذي يدرسه حباً مخفقاً أيضاً ، حتى اطلع وبات أمين أسرار جم . هكذا يبدو ، وهكذا يتصرف ويستقبل كل شيء من حوله . وظل أصدقاؤه القدامى يطلقون عليه في أحاديثهم اسم السلطان جم مستهزئين آسفين .

وهكذا ، حينما كان يذكر اسم السلطان، وخصوصاً إذا اقترن الاسم بخلافات أو حروب في السلطنة نفسها ، وحتى لو أن ذلك حدث في زمان غابر بعيد ، فانه لم يكن ليبقى هنا في مكانه ضمن شلة الأصدقاء الذين ذكروا ذلك . دائماً يوجد طائر يطير ويخبر السلطان أو رجاله بأن اسم السلطان قد ذكر ، ومن هو الفاعل ، وكيف . وهكذا حدث أن وصلت هواية جميل السرية البريئة من

خلال فم أحدهم الى أذن أحد المخبرين ، ومنه الى عتبة والي ازمير ، حيث استقبلت بشكل آخر ، واتخذت معنى جديداً في كل صفاتها .

في ذلك الوقت كان والي ولاية ازمير ضابطاً صلباً شديد الغضب ، رجلاً غبياً مريضاً بالشك ، يخشى حتى في منامه أن يفلت من بين يديه أي خطأ سياسي أو مؤامرة تحاك أو أي شيء من هذا القبيل .

« لكن كل تلك الشدة والغضب في « الأعمال الحكومية والسياسية » لم تمنعه من قبض الرشاوى الطائلة من التجار ومالكي السفن . لهذا قال قاضي ازمير عنه إنه رجل قصير الادراك طويل الأصابع » .

وكان أول ما فكر فيه الوالي — وهو يسمع الاخبارية عن جميل ، تلك الاخبارية التي لم تخطر أصلاً على بال الشاب — هو الحقيقة العارية أن للسلطان الحالي أخاً بالفعل ، أعلنه على الملأ بوصفه انساناً معتوهاً ، وقيل إنه يحتفظ به في الأسر . وكان أمراً معروفاً لكل الناس ، ولو أن أحداً لم يأت على ذكره . أثاره هذا التداعي ، وهيجته المقارنة . وحدث أن قامت في تلك الأيام بعض الاضطرابات والصخب في الجزء الأوربي من تركيا . فأرسل السلطان من استنبول رسالة حادة اللهجة ذهبت دائرة من وال الى وال ، شرح بها تحذير الحكومة للولاة في كل انحاء البلاد ، داعية اياهم الى الانتباه ومراقبة كل المحرضين والمشاغبين الذين يحاولون نسف أعمال الحكومة للولاة في كل أنحاء البلاد ، داعياً اياهم الى الانتباه الوالي ، كأي ضابط سيء ، بأنه المقصود والهدف . وقد خيل إليه — بشكل أقنعه — أن هذا التحذير يستهدف ولايته فقط .

وبما أنه لا يوجد في اكل الولاية « أية حادثة » فان المقصـود هـو « حادثة » جميل •

وفي ليلة ما طوّق الشرطة بيت جميل وفتشوه • أخذوا كـل الكتب والمخطوطات ، ووضعوا جميلاً تحت الاقامة الجبريـة في منزله •

وعندما شاهد الوالي تلّة الكتب ، ولاحظ أنها مكتوبة بلغات مختلفة أيضاً ، ورأى عديداً من المخطوطـات والملاحظات ، انبهر ، واجتاحه غضب عارم جعله يقرر عـلى مسؤوليته الخاصـة سجن مالكها ، وارساله موجوداً مع الكتب والأوراق إلى استنبول • ولم يستطع الوالي أن يفسر لنفسه لماذا هيجت هذه الكتب ، وخصوصاً الأجنبية منها ، وبمثل هذا العدد، في نفسه كل هذا الكره والغضب• لكن الغضب والكراهية لا يبحثان عن سبب ، وانما كما هي العادة، تثير إحداهما الأخرى ، وتنموان جنباً الى جنب •

كان الوالي واثقاً بأنه لم يخطىء وبأنه ضرب ضربته الموفقة في المكان الصحيح • وأثار خبر سجن ابن طاهر باشا الكثير مـن الرجال المرموقين ذوي المراكز ، خصوصاً علماء المسلمين • فذهب القاضي والمتعلّم والرجل الكهل وصديق طاهر باشا بنفسـه إلى الوالي ، وشرح له كل ملابسات حادثة جميـل ، وقال إنه شـاب متسامح بريء ، يمكن أن يعد بنمط حياته مثالاً يحتذى للشباب المجيد والمسلم بحق ، وقد وقع في أتون سوداوية صعبة نتيجة حب مخفق أضناه ، فاستسلم للعلم والكتب وإذا كان قد غالى في ذلك فيجب النظر الى الأمر على أنه مرض وليس عملاً سيئاً بقصد شرير، وأن ما يستهآله فعلاً هو الرأفة والتفهم وليس الملاحقة والعقاب ، وأن الأمر كله لا يتعدى سوء التفاهم ، فما يمارسه هو التاريـخ ، أي

العلم ، ومن العلم لا يمكن أن تولد الخسارة • لكن ذلك كله تكسر على صلابة غباء ذلك الضابط وشكه •

ـ لا أريد أنا يا أفندي ، أن أوجع رأسي بذلك • أنا لا أعرف التاريخ ، ولا أعلم ماذا تطلقون عليه من أسماء • وأعتقد أنه من الأفضل له ألا يعرفه هو أيضاً ، وألا يتفحص ويمحص كثيراً كيف ولماذا فعل كل سلطان من السلاطين في حياته ما فعل ، وانما عليه أن يسمع ويطيع ما يأمر به السلطان الحالي والحاكم •

ـ إنه علم ، إنها كتب !

قاطعه القاضي بمرارة ، وهو العارف من خلال تجاربه مدى فداحة الخسارة التي يمكن أن تحيق بالمجتمع والأفراد من رجال كهؤلاء ، ضيقي الأفق ذوي ثقة لا محدودة بعقلهم وحسن تقديرهم للأمور ، وإيمان مطلق بكل حكم من أحكامهم واستنتاجاتهم •

ـ إيه ، تقصد أن كل تلك الكتب لا فائدة منها • السلطان جم هو المرشح للمنصب ! يعني الحرب من أجل العرش ! • لقد انطلقت الكلمة ، وهي إذا ما وصلت الى الأسماع فلا يمكن ايقافها، بل ستذهب الى أبعد ، وفي طريقها ستنمو وتتغير • لم أكن أنا قائل تلك الكلمات ولا سببها بل هو ، لهذا يجب أن يتحمل مسؤوليتها •

ـ لكنهم يلصقون بالرجل ما لم يقله أو يفعله ! ـ ثانية حاول القاضي أن يدافع عن الشاب •

ـ إذا كانوا قد اتهموه أو ظلموه، فليغتسل، وسوف ينظف• أنا لا أقرأ الكتب ولا أريد أن أفكر في غيري • ليفكر كل واحد بنفسه • ثم لماذا يتوجب علي؟ أنا أن أرتجف بسببه؟ في ولايتي هذه

يتوجب على كل فرد أن يحترس من شر أفعاله وأحاديثه . ما أعرفه هو شيء واحد : القانون والنظام .

رفع القاضي رأسه ونظر إليه بحدة وتأنيب :

ــ أظن أننا ندافع كلنا عنهما !

لكن الرجل المتغطرس لم يتفهم أو يتوقف .

ــ نعم ، القانون والنظام . وكل من يعلو برأسه فوقهما سأقطعه له . أنا موظف عند السلطان ، وسأقتص من أي فرد حتى لو كان ابني الوحيد . أنا لا أستطيع تحمل « دحواس » أصبعي وبالتالي تلك العلمانية المشبوهة عند هذا الأفندي الشاب .

ــ بالامكان بحث ذلك هنا واظهار الحقيقة .

ــ لا يا أفندي . التعليمات هي التعليمات . والتعليمات لا تنص على ذلك ، وانما بالضبط كما أقول . لقد تكلم عن السلطان والشؤون السلطانية ، لهذا يجب أن يستجوب على عتبة السلطان نفسه . تلك هي استنبول فليذهب إليها وليشرح كل ما قرأه واكتبه وكل ما تحدث به أمام الناس هناك . ليعتصروا هم رؤوسهم من أجل ذلك . وإن كان على حق فلا خوف عليه من أي شيء .

وانتهى الأمر عند هذا الحد . نظر القاضي العجوز الى ذلك الوالي أمامه . كان حليق الشاربين ، قصيراً نحيفاً كأنه مرقوق ، ضعيفاً وعاجزاً ، لا يمكن أن يتسع داخله لخمسة أرغفة من الخبز وبامكانه إن يفعل كل هذا القدر من الشر ، وهو شكاك ومتعجرف، ومن احتمالين اثنين مستعد دائماً للاحتمال الأبشع ، وحينما يخاف من شيء ــ كما هو الآن ــ يتحول الى إنسان فظيع بالفعل . وقد

بدا واضحاً للقاضي أن الكلام لن يجدي مع وال كهذا لن يفعل إلا ما أضمر ، وإنما يجب البحث عن طرق أخرى للمساعدة .

أُرسل جميل الى استنبول تحت حراسة مشددة وسرية . « كان هذا هو التساهل الوحيد الذي فعله الوالي من أجل القاضي » ، وأرسلت معه كتبه ومخطوطاته ممهورة كلها بالخاتم . وحينما علم القاضي وأصدقاؤه بذلك أرسلوا في أثره أحد رجالهم، لكي يفسر الأمر في استنبول ، ويساعد الشاب البريء . وحينما وصل الرجل الى إستنبول كانوا قد أرسلوا جميلاً الى لطيف آغا لاستجوابه والاحتفاظ به في التوقيف .

هكذا بدا تاريخ جميل أفندي ، بالشكل الذي استطاع به حاييم أن يعرفه ويراه . وقد قُصّ هنا باختصار من دون إعادات حاييم وملاحظاته وتكراره « ايه ؟ آه .. » مرات كثيرة .

* * *

الفصل الرابع

كان كراكوز دائماً يمقت بشدة المتهمين السياسيين • ويفضل أن يتصارع مع مائة مجرم وجانح كباراً وصغاراً من عالم الاجرام الجنائي، عن أن يكون له أي اتصال مع مذنب سياسي واحد • كان جسده يقشعر عند سماعه بأخبارهم • لقد تحملهم مكرهاً في فنائه وعدّهم « عابرين » • لكنه في حياته لم يرغب في العمل معهم • كان يتحاشاهم وكأنهم مرضى مصابون بمرض سار شديد العدوى • وكان يحاول التخلص بسرعة من كل ما هو « سياسي » وكل من أتى على صلة بهذه الصفة • وكان يتوتر مستغرباً من هذا السجين الذي اقتيد من مدينة سميرنا : انه من عائلة تركية رفيعة ، سارت معه جنباً الى جنب صناديق مليئة بالكتب والمخطوطات ، وليس مؤكداً أهو مجنون أم عاقل ، « ذلك أن المجانين وكل ما يتصل بهم كانوا يزرعون في نفس كراكوز خوفاً رهيباً وقرفاً غريزياً » • ولم يكن رفضه لاستقباله ممكناً • وهكذا سجن جميل في غرفة مشتركة، حيث وجد كما رأينا مكانه الذي قضى به يوميه الأولين • وفي اليوم التالي استطاع الرجل الذي أرسله القاضي من مدينة سميرنا الوصول الى سلطة أعلى ، وبالتالي اخراج جميل واعطاءه غرفة خاصة ضمن الفناء الملعون ، وحصوله على خدمة محترمة ، ريثما يتم استجوابه والتأكد من قضيته • وقد نفذ ذلك فوراً •

في اليوم التالي طاف الراهب بيتر في الفناء الكبير بخطى وئيدة ، وكأنه يبحث عن شيء ، أو يترقب لقاء أحد ، ماسحاً بنظره النوافذ والشرفات في الأبنية من حوله • وكان حاييم يقترب منه بين وقت وآخر ، بعد أن ترك مكانه السابق في الغرفة بجوار الراهب بيتر والتاجرين البلغاريين ، واختار مكاناً آخر أكثر عزلة • واكسبب لهذا ذكر تيارات الهواء • لكنه بعد يومين ـ ثلاثة أيام اعترف للراهب بيتر بسرية أنه كان يشك في أمر التاجرين البلغاريين ويرى أنهما جاسوسان • ضحك الراهب بيتر واستبعد فكرة كهذه • وأمعن النظر في أثناء ذلك في وجه حاييم النحيف ، ولاحظ عليه أول مرة تعبيراً غريباً منغصاً كالذي يشاهد على وجوه بعضهم ممن يتطاحنون بداخلهم مع أفكارهم الغريبة ، وقد احتلهم الخوف والرهبة •

وبعد يومين عاد حاييم برأس منكّس ، ليلامس بأنفه الطويل الرفيع أذن الراهب بيتر وهو يوشوشه بأخبار جواسيس آخرين ، منبهاً اياه ليحترس •

ـ تجاوز ذلك يا حاييم ولا تكلم به أحداً •

ـ إعلم بأنني لم أسرّ به لأحد سواك •

ـ لا تسر به لأحد ، حتى ولا إليّ • هذا أمر يحرم الخوض فيه والكلام عنه •

هكذا دافع الراهب بيتر عن نفسه إزاء ثقة حاييم السريعة والكبيرة التي كانت تزعجه • وعلى الرغم من ذلك فقد تكرر الأمر مرات عدة ، حتى تعوّد الراهب بيتر عليه • فكان يربت على كتف حاييم ، ويهدىء من روعه ، محاولاً دائماً اعطاء الحديث نبرة مزاح مسالم •

ـــ لكن ، من ؟ أهو ذاك الطويل الأشقر ؟ ألا ترى يا هـذا بأنه نصف ميت من الخوف وغير مهتم بأي شيء كان ؟ انه رجـل بريء وديع كخروف ، وأنت تخاف وتشك في الناس دون مبرر •

وكان حاييم يهدأ ساعة أو ساعتين دون أن يتحمل نفسه مـدة طويلة • فتراه يعود الى الراهب بيتر ثانية وهو يؤكد أنه لا ثقة لـه بأحد غيره ، متابعاً حديثه الذي انقطع قبل قليل •

ـــ حسناً ، ليس ذاك الذي شككت فيه خطأ ـــ لنقل خطأ ـــ حسناً ، لكنه شخص آخر لا يمكنك الشك فيه مطلقاً • ومن هو ؟ أهو ذاك الواقف قرب الباب الرئيسي ينظر أمامه ويتصرف وكأنـه غير عابىء بأي شيء ؟ أم ذاك الذي ينظر بوقاحة الى كل انسان من رأسه حتى أخمص قدميـه ؟ أم ذلك المسالم الـذي يبدو وكأنـه الأغبى ؟ أو يجوز انه ليس أياً منهم ، بل شخصاً عاشراً ؟ وبما أنـك لا تعرف من منهم يمكن أن يكون ، وفي الوقت نفسه لست متأكداً من أنه ليس هو ، فان كلاً منهم يمكن أن يكون هو • كلا منهم •

ـــ أستحلفك بدينك يا حاييم أن تبتعد عما لا فائدة منه •

قال الراهب بيتر وهو يفقد شيئاً من احتماله •

ـــ لا ، لا ! أنتـم يا صديقي المحترم انسـان طيب • لهـذا تعتقدون أن كل الناس طيبون •

ـــ فكّر جيداً ، ولن يحصل إلا ما هو جيد ، يا حاييم يـا أخي •

ـــ لا ، جيد ! جيد ؟

همس حاييم وهو مليء بالشك ، حينما كان يبتعد منكّس الرأس وقد تسمرت نظراته على الأرض •

وثانية كان يعود غداً ، منذ الصباح الباكر ، وكأنه قادم للاعتراف • وحتى حينما كان يتحرر ولو لحظة من مخاوفه فانه لم يكن ليهدأ • كان يبدأ الكلام وقتئذ بصوته الحيوي ، المتهيج دائماً من شيء ما ، عن الظلم الذي حاق به ، والخسارة التي لحقت به ، عن الناس وأخلاقهم في بلدته • وكان الراهب بيتر يستغل الفرصة دائماً ليوجه إليه بضعة أسئلة عن جميل أفندي • ولم يظل حاييم مديناً بالاجابة أبداً • كان باستطاعته التحدث عن الأمور التي قال عنها كل شيء ، ثانية ، بصورة مطولة ، وبالتفصيل • ذاكراً دقائق جديدة موثوقة واكثيرة • وكان الراهب بيتر يسمع كل ذلك باهتمام، وهو يراقب وجه حاييم النحيف وجبينه العالي • كان الجلد مشدوداً جداً فوق ذلك الجبين ، رقيقاً الى درجة الشفافية، مظهراً لأي انحناء تحته مهما كان صغيراً ، راسماً كل عظام الجبين • وكان الشعر الأشعث بغرابة ، المحيط بهذا الجبين ، أجعد بشكل غير مناسب وناشفاً كأن لهباً غير مرئي قد التمع في جذوره •

وإذا حدث أن ذهب حاييم بعد أحاديثه منكّس الرأس مهموماً فان الراهب بيتر كان يشيعه بنظرة طويلة مشفقة •

مرّ يومان ولم يظهر جميل أو يأت • وقد فسر حاييم — وهو الذي إضافة الى كل مشاكله كان يتوصل الى معرفة كل شيء من مكان ما ، أو على الأقل أن يستشف ذلك بنفسه — الأمر بأن الشاب يخضع الآن من كل بد للاستجواب ، وانهم في ذلك الوقت لا يسمحون للمشتبه به بالخروج الى الفناء ، حتى لا يكون على أي

اتصال مع أحد ، وحينما ينتهي الاستجواب ، ويرسلون القضية برمتها الى القاضي ، يبدؤون السماح له بالتجوال •

كان حاييم يعرف كل شيء ويتوقع كل شيء « على الرغم من عدم صحة ذلك دائماً » في ذلك الصباح جلس الراهب بيتر على حجر مفكراً ، وهو يسمع بشكل غير واضح خلافاً مجنوناً ومشادة آتية من جهتين مختلفتين ، حيث تتكسر الأصوات وتمتزج في سمعه •

تكونت على يساره حلقة صغيرة مؤلفة من بعض المقامرين ، بدا أنهم ينهون بينهم خلافاً نشأ قديماً حول القمار • وكانت الحلقة محكمة أعضاؤها من الرجال المشبوهين ، والحديث صلباً وناشفاً •

ــ أعد للرجل نقوده •

قال أحدهم ، ذلك الطويل بصوت حاد ناشز ، وقد بدا وكأنه أحد عمداء المقامرين •

ــ سأعيد له هذا •

صرخ غاضباً رجل قصير قوي ذو عينين ملتهبتين، وهو يضرب بكفه على كوعه •

ــ انظروا أي رجل هو واشهدوا ! لقد جرح الرجل ، ولم يبق إلا القليل ليقتله •

قالت بعض الأصوات من طرف •

ــ وما الذي يمنعني من قتله ؟

ــ هناك شيء اسمه المنفى • أتعلم ذلك ؟

ــ فليوجد ! سأقتله حينما نخرج ، وسوف أنام من أجله ثانية وعلى طرف واحد !

وترتفع أصوات محتجة ، يتبين من بينها بصعوبة صوت رجل طويل ، مليء بالتهديد ، قال مصراً بغباء :

ــ أعد النقود ! أتسمع ؟ .

أما المشادة الصادرة عن رجال الحلقة اليمنى فكانت أكبر . وخلال لحظات طغت كلياً على تلك الآتية من الحلقة اليسرى . كان من ضمنها زعيم ، وذلك الرجل الثرثار ذو الجسد الرياضي القوي الذي يهدر بصوت أجش ، وسجين جديد قصير يسمونه سوفتا . وكالعادة دار الحديث بينهم حول النساء . لم يقل زعيم شيئاً ، بل كان يتهيأ على الأغلب لحكاية جديدة . وكان يقود الخلاف سوفتا والرياضي .

يصرخ رجل قصير تبين من صوته أنه كان يقفز في أثناء حديثه، كما يفعل الرجال القصار ليعطوا حديثهم أهمية اضافية .

ــ الأرمنيات ، الأرمنيات ، هنّ النساء . هن !

ــ ماذا الأرمنيات ؟ وأية أرمنيات ؟ أأنت الذي ستحدثني عن الأرمنيات ؟ أنت ؟ . أنت ما تزال قاصراً .

ــ عمري واحد وثلاثون عاماً .

ــ ليس القصد . السنوات ليست مهمة ، وانما أنت قاصر وسوف تبقى قاصراً ولو بلغت الخمسين . أتفهم ؟ أنت قاصر ، مختل ، قليل الدم فقير الروح ، وبصورة عامة أنت كل ما هو ــ قليل .

ـ وأنت كل ما هو « كثير » •

قال الرجل القصير بلهجة ناشفة فظة حين كان الباقون جميعهم يضحكون •

ـ ألا ترى أنك لم تصب حتى في ذلك ! أنا كل ما هـو ـ الأكثر • ليكن معلوماً لديك • ولهذا فأنا لست انساناً صالحاً • نعم حتى أنا لست صالحاً • أما أنت ، أنت ت ت ؟!

هنا قال الصوت الأجش كلمة قصيرة واحدة غمرها ضحك عام فلم تفهم •

وثانية سمت الصوت الأجش • وثانية دار الحديث حول النساء وحب النساء ، وكأنه لا يجيد الكلام عن أي شيء آخر •

ـ الأرمنية يا هذا مثل نار الغابات : من الصعب اشعالها ؛ لكنها إذا التهبت مرة لن يستطيع اخمادها أحد • انها ليست امرأة وانما هي ـ عمل قسري • قدر يلتصق بالرجل حتى تصبح أسيرها وأسير عائلتها كلها ، ليس الأحياء منهم فقط بل الأموات أيضاً ، والذين لم يولدوا بعد • انهم يأكلونك • وكله بالحق وبالقانون ؛ بالحق والقانون الرباني فقط • «لقد اتخذوا كلهم من الله شريكاً» الأرمنية لا تغتسل ستة أيام من الأسبوع ، لأنها تغتسل أيام العطلة فقط • وكلهن مشعرات ، من أصابعهن حتى عيونهن ، تفوح منهن رائحة الثوم • أما الشركسيات !!

ـ آه إنها المرأة الحقيقيـة !

يقول واحد من الحلقة مطلقاً زفرة تحسر •

ـ إنها يا صاح يوم صيفي وليست امرأة • يوم صيفي لا تعرف

فيه ما هو الأجمل ، أهي الأرض أم السماء من فوقها • وهنا يجب أن تتهيأ جيداً • ومهما فعلت فليس لك من معين ، حتى ترى أمهر المعلمين عاجزاً • الشركسية ليست طائراً حينما تمسك به يعني أنك امتلكته •• لا • إنها شيء لا يمكن للرجل امتلاكه • فهي تنزلـق كالماء الذي لو قبضت عليه تبقى وكأنك في حياتك لم تملكه • هنا لا توجد ذاكرة ولا يعرف ما ه والفهم ولا الروح ولا الرحمة ، ولن تستطيع القبض على قوانينها أبداً •

وثانية سمعت كلمة قصيرة غير مفهومة سببت ضحكاً صاخباً• تنبه الراهب بيتر من أفكاره ، وذهب ليجلس في مكان أبعد قليلاً• نهض ، لكنه سرعان ما توقف متفاجئاً ، لقد وقف أمامه مرتبكاً ، بعد سلام قصير ، ـ جميل أفندي •

هذا ما يحدث عادة • فالذين نرغب في رؤيتهم لا يأتـون في الساعات التي نفكر بهم ونتوقع مجيئهـم بفارغ الصبر ، وانمـا يظهرون في لحظة كنا بها أبعد ما نكون بأفكارنا عنهم • لهذا يتطلب الأمر وقتاً قصيراً تنهض به فرحتنا بهم من قعرهـا ، مكان ما هي مضغوطة ، لتظهر على السطح بسبب هذه المشاهدة من جديد •

ابتعدا عن الصخب والضحك •

ـ أخ ، ألا ترى ؟ ألا ترى !

قال الراهب بيتر أولاً ، وأعادها عدة مرات ، وكأنه في أوهام• أعاد تلك الكلمات وهما يجلسان الواحد بجانب الآخر • « لقـد وجدت فرحته هناءتها في أن تبدو أقل مما هي حقيقة » •

فجأة بدا كل شيء وكأنه بعيد حدث من زمن ، ولو أنه لـم يمض على لقائهما الأخير سوى بضعة أيام • لقد نحف الشاب بشكل

ملحوظ ، كأنه انعصر . وظهرت الدوائر الداكنة حول عينيه أكثر ، وضمر وجهه واكتسى بابتسامة باهتة خفيفة بدت وكأنها تنعكس عليه من الخارج ، لتهبه تعبيراً بحرج وارتباك قليل . كانت بذلتـه مجعدة ، ولحيته أطول ومهملة ، حتى بدا الشاب بمجملـه أكثر تحفظاً وأعم خوفاً بقدر أكبر من ذي قبل ، وبشكل جديد .

وكأن تلك الصداقة غير العادية بين شاب تركي من عائلـة محترمة من مدينة سميرنا ومسيحي غريب من بوسنا قد نمت خـلال تلك الأيام التي لم يتلاقيا خلالها . بل إنها تطورت وتأكدت أكثر في هذا السجن العجيب وبسرعة ، على خلاف ما يتوقع لها . إنهـا الصداقة التي لا يمكن أن تحدث إلا في مثل تلك الظروف الخاصة. ولم تكن أحاديثهما الآن إلا قصّاً بطيئاً حول ما شاهداه وقرآه في وقت ما . « لم يتكلم أي منهما عن نفسه » . لكن تلك الأحاديث تميزت من كل ما يمكن أن يُسمع أو يُشاهد من حولهما ، وهذا هو المهم . فمن خلالها كانا يمضيان طيلة النهار من الصباح الـى المساء ــ عندما يجب على المساجين الذهاب كل الى حجرته ــ ولا تنقطع إلا حينما يضطر جميل للذهاب الى صـلاة الظهر والعصر . وكما هي العادة كان الراهب بيتر يتكلم أكثر ، مع نمـو مساهمة الشاب في الحديث بصورة غير ملحوظة ، على الرغم من أن صوته الآن أيضاً كان يُسمع كتردد صاخب لصوت قاس محدد ، ما يلبث أن يتحول بعد عدة كلمات كالعادة إلى همس .

وبصوت كهذا ، ابتدأ جميل ، قليل الكلام ، في يوم ما ولحظة ما « وثانية لم يستطع الراهب بيتر أن يتذكر كيف ومتى ! » الحديث عن تاريخ السلطان ــ جم . ومن تلك اللحظة وحتى النهاية لم يعد يتحدث عن أي شيء آخر .

كان الحافز على بدء الكلام مصادفة ، أو انه بدا هكذا • وبصوت خفيض ، وكأنه يتكلم عن أشياء عادية ، سأل جميل :

ـ ألم تقع في التاريخ على اسم السلطان ـ جم • ، أخي بيازيد الثاني ؟ •

ـ لا •

أجاب الراهب بيتر بهدوء ، وهو يفكر مستشاراً بأحاديث حاييم السابقة ، مخفياً أي أثر من استغرابه •

ـ لم تروا •• لم تروا ؟

بدت حيرة الشاب واضحة • ثم بعد عدة كلمات قالها بتجرد قسري على سبيل المقدمة ، ابتدأ •



الفصل الخامس

إنها حكاية الأخوين الأزلية بشكلها الرسمي والجديد .

فمنذ أن وجد العالم والحياة تتوالد تلك الحكاية من جديد وبغير انقطاع في هذه الدنيا . إنها حكاية الأخوين المتنافسين . أحدهما ، الأكبر ، كان الأذكى والأقوى والأقرب الى العالم والحياة الحقيقية ، وكل ما يتصل بالناس ويربطهم ويحراكهم ، رجل ينجح في كل ما يقوم به ، ويعرف في كل لحظة ماذا يجب أن يفعل وماذا لا يجوز ، ما الذي يمكن طلبه من الآخرين ومن نفسه وما الذي لا يمكن . أما الأخ الأصغر فهو على النقيض منه ، رجل بعمر قصير ، وحظ عاثر ، وخطأ الخطوة الأولى ، انسان تذهب مطامحه دائماً بعكس ما يجب وفوق ما يستطاع . وفي خلافه مع أخيه الأكبر ، والخلاف هنا لا مفر منه ، يخسر المعركة منذ بدايتها .

وقف الأخوان وجهاً لوجه حينما مات أبوهما السلطان الفاتح محمد الثاني فجأة عام ١٤٨١ م في أحد أيام شهر أيار في أثناء احدى غزواته الحربية . كان الأخ الأكبر بيازيد قد أكمل الرابعة والثلاثين من عمره ، والأصغر جم ما كاد يستهل الرابعة والعشرين . كان بيازيد حاكم أماسيا ومركزها على البحر الأسود . وجم حاكم كرامانيا في قونية . كان بيازيد أسمر اللون ، طويل القامة ، محني

الظهر قليلاً ، متمالك النفس ، محباً للصمت • وكان جم ضخماً ، أشقر الشعر ، قوي البنية ، نفوراً وقلقاً • ومع أن جم كان شاباً فقد كوّن في قصرهفي قونية دائرةمن العلماء والشعراء والموسيقيين • وكان هو نفسه يكتب أشعاراً جيدة • وكان اضافة الى ذلك سباحاً ماهراً رياضياً وصياداً • « رأس" نضر" كما يقولون » • لا حدود لمعارفه وهواياته ، وبشكل بات معه النهار قصيراً ، فأخذ من الليل والنوم قدر ما استطاع حتى يطيل يومه • وكان يجيد اليونانية ويقرأ بالايطالية أيضاً •

وكان بيازيد من أولئك الذين يندر أن يتكلم الناس عنهم ، متزناً ، شجاعاً وماهراً في الرماية والحرب • ولم يكن الإبن الأكبر والأكثر خبرة فقط وإنما كان ، وبرغبة شديدة ، الأعرف بأمور امبراطورية أبية الكبيرة ، الأعرف بقوانينها ومراسيمها ، بمصادر دخلها وعلاقاتها مع العالم الآخر • كان من أولئك الذين يفكرون في شيء واحد ويعملون شيئاً واحداً في كل لحظة من لحظات النهار ، شيء هو الأهم والأكثر ضرورة وفائدة •

وفي التسابق على العرش الشاغر كان بيازيد الأسرع والأمهر • وكان لـ جم أنصار بعدد أوفر في القصر وفي الجيش « كان جميعهم يعلمون أن السلطان محمد الفاتح نفسه يميل الى ابنه الأصغر ويرغب في أن يكون خلفاً له » • لكن رجال بيازيد كانوا أفضل تنظيماً وترابطاً ، فعملوا بصورة أسرع • ووصل بيازيد أولاً الى استنبول واحتل السلطة • وبدأ فوراً بتهيئة الجيش ضد أخيه الذي كان مع جيشه في الطريق من كرامانيا باتجاه استنبول •

وصل جيش جم بإمرة قائده كديك باشا الى بورصة ، مركز السلطة العثمانية الأزلي • مدينة خضراء جميلة، واقعة علىمنحدرات

جبال عالية ، وتهيأ للحرب . وكان جيش بيازيد يقف في السهول بإمرة قائده أياس باشا . وابتدأت المفاوضات . وكان لدى كل أخ من الاثباتات ما يدعم حقه وأفضليته . كان بيازيد الأكبر والأكثر استقراراً ، استُقبل واعترف به حاكماً في استنبول . وكان جم قد أسس حقوقه على اثباتات أخرى . لقد ولد بيازيد إبان حكم جدهما مراد الثاني ، حينما كان أبوهما ولياً للعهد فقط ومن أم أصلها جارية . وولد جم حينما أصبح الأب محمد الثاني سلطاناً وكانت أمه من عائلة أمراء من صربيا . ولم يكن السلطان محمد في أثناء حياته يصرح أن العرش بعده لابنه الأصغر ، بل كان يعبر أن ابنه الأصغر هو الأقرب له ، وهو في قرارة نفسه قد حدد العرش له . وقد أدت قدرة الباشوات التي تغذيها طاعة صادقة أو أهداف أنانية الى إثارة الأخوين وتحريض أحدهما على الآخر . وكما يحدث عادة ، فان كلاً من الأخوين قد وجد في كل ما يحيطه تأكيداً كافياً لرغباته وما أصر عليه ، وايماناً جازماً بحقه وقوته .

وفي ظروف كهذه لم تتمكن المفاوضات أن تؤتي ثمارها . لقد طلب جم حصته من السلطنة في آسيا ، لكن رد بيازيد الهادىء كان أن السلطنة واحدة وغير قابلة للتقسيم ، وأنه لا يمكن أن يكون هناك سوى سلطان واحد . وعرض على أخيه الانسحاب مع الحريم الى القدس ليعيش هناك بأمان بفضل مبالغ كبيرة من النقود سيدفعها له سنوياً . لكن جم لم يرغب ولو بسماع ذلك . فحدثت الحرب . وكان بيازيد قد نجح قبل ذلك في دس أحد رجاله وهو المدعو يعقوب بك بين مستشاري جم . وهكذا خسر جم الحرب ، واستطاع بشق النفس أن يحافظ على رأسه ويهرب الى مصر ، حيث استقبله هناك بترحاب والي مصر ، الذي كان اقتتال الأخوين

بالنسبة إليه هدية من السماء • وقد حاول جمّ بمساعدة والي مصر أن يجرب حظه مرة أخرى ، لكنه انهزم ثانية ، ووجد نفسه من دون جيش على شواطىء آسيا الصغرى مع نفر قليل من رجاله المخلصين، « وبقيت زوجته وأمه مع ثلاثة أولاد قاصرين في مصر » • وهكذا، قرر جم لشعورة بالهزيمة وادراكه ما ينتظره لو قبض عليه الهرب الى جزيرة رود ليطلب اللجوء من السلطة المسيحية هناك •

كانت جزيرة رود التي حاصرها محمد الثاني قبل عدة سنوات حصاراً لم يشمر عن شيء يحكمها أحد المذاهب الكاثوليكية القوية المسماة جوانيتا وأمراء القدس ، الذين يدينون بمذهب القديس يوحنا • وعدّت مركزاً موالياً ومخلصاً للعالم الغربي المسيحي ومشهوراً عنده • وكان جم يعرف أولئك الأمراء من وقت سابق حينما أجرى معهم بعض المفاوضات بأمر من أبيه السلطان فيما مضى • وقد أرسل اليهم يرجوهم إلجاءه • وبما أنهم كانوا ينتظرون ذلك بفارغ الصبر أرسلوا إليه فوراً سفينة خاصة حملته من الشاطىء مع حاشيته البالغة حوالي ثلاثين شخصاً ، ونقلتهم مباشرة الى جزيرة رود •

واستقبل هذا الثائر والمنافس على العرش استقبالاً سلطانياً رسمياً عند المعلم الكبير، ممثل مذهب الأمراء د• أوبيسون «بييرد• أبوسون » ، وكل الأمراء الرسميين ، بل والشعب كله • وأكد المعلم الكبير لـ جمّ ضمان الحرية واللجوء السياسي • وتفاهما بأنه سيكون من الأفضل أن ينتقي جم فرنسا وطناً يعيش فيه ، ريثما يساعده الحظ على العودة الى تراكيا سلطاناً • وهكذا أرسل جمّ مع حراسه وحاشيته الى فرنسا •• وابتدأ د• اوبيسون العمل على كل المحاور والجهات ليستغل هذا الأمير التعيس أفضل استغلال

لصالح طبقته ومذهبه ، للمسيحية عامة ، بل ولمصالحه الشخصية . وكان واضحاً لديه أية رهينة تلك التي بين يديه . وحينما وصل جم الى فرنسا لم تترك له الحرية ، بل احتُجز ، بعكس ما قطع له من عهود ، في مدن قاسية كانت تخضع لطبقة أمراء القدس .

حول « أخي السلطان » حيك عديد من المؤامرات الخبيثة ، وطرحت حسابات كثيرة شاركت بها كل حكومات أوربا حينهـا : والبابا ، بل والسلطان بيازيد نفسه . وهكذا رغب ملك هنغاريـا ماتيا كوفين والبابا اينو كنتيا السابع في أن يُسلّم جم لهما حتى يستخدماه وسيلة في الحرب ضد تركيا وبيازيد الثاني . لكن بيير د. أوبيســون الخبيث احتفظ بهذا العبـد الثمين تحت سلطته ، وابتدأ التهديد بواسطته بطريقة ماكرة وعلى كل الجهات . تهديد بيازيد وسلطان مصر والبابا . وكان بيازيد يدفع له مبالغ طائلة هي ظاهرياً لتكون مصروفاً لجم ، وفي الحقيقة ليحتفظ بـه ولا يسلمه للآخرين . وقد وعد البابا بيير د. أوبيسون هذا برتبة كاردينال إذا سلمه « جم » . وعرض عليه سلطان مصر مبالغ طائلة . ولم تتوقف أم جم التعيسة التي تعيش في مصر عن العمل في سبيل اطلاق سراح ابنها ، مرسلة مبالغ كبيرة الى جم . لكن كل تلـك النقود كانت تبقى عند المعلم الكبير .

لقد استمر التكالب على أخي السلطان ، واستمرت اللعبـة الدقيقة لـ د. اوبيسون ثماني سنوات . وخلال كل ذلـك الوقت كانوا يقودون جم من بلدة فرنسية محمية بدقة الى بلدة أخرى ، ودائماً تحت حراسة أمراء القدس المشددة . وكانوا يجردونه ببطء من حاشيته ، حتى لم يبق له في النهاية سوى أربعة ــ خمسة رجال من تلك الحاشية . وقد باءت كل محاولات الهرب والخلاص من

أيدي أمراء القدس الكفار بالاخفاق • وفعل السلطان بيازيد كل ما بوسعه للتحرر من الضغط الذي كان يمارسه عليه كل العالم المسيحي بواسطة أخيه ذي الحظ العاثر الذي أضحى وسيلة في يد ذلك العالم • كان يستخبر عن أخيه من ملوك دوبروفنيك وملوك نابولي ، ويستمر باتصالاته مع بيير د• أوبيسون ويقوم أمامه بتراجعات كبيرة ومن كل الأنواع • وعلى رغم كل ذلك كانت مصالحهما تتضارب على نحو ما • فرغبة د• أوبيسون هي الاحتفاظ بـ جم" أطول وقت ممكن تحت سلطته ليهدد بواسطته قليلاً كل العالم • وكان المهم بالنسبة لبيازيد أن يتواجد أخوه ـ منافسه في سجن أمين وليس على رأس جيش ما يزحف ضد تركيا •

وفي السنة الثامنة من اقامة جم" في فرنسا ، وكان ذلك عام ١٤٨٨ وصلت الحرب الدبلوماسية حول شخصية جم الى قمتها ، حيث وصل المبعوثون الى باريس من كل الجهات ، وكان لديهم كلهم وظيفة رئيسية واحدة : شخصية جم" • كان مبعوث بيازيد رجلاً يونانياً مسيحياً اسمه أنطونيو ريريكو ، عرض على ملك فرنسا ورجال قصره مبالغ طائلة ، سراً ، وعلناً عرض عليهم السلطة على القدس حالما ينتصر بيازيد على سلطان مصر ويفتح تلك المدينة، وعرض عليهم الهدايا الثمينة التي يرغب فيها رجال القصر ونساؤه • وفي الوقت نفسه أرسل ملك هنغاريا ماتيا كورفين وفداً على مستوى ممتاز يطالب بأخي السلطان لنفسه ، وذلك لامتلاك حظ أوفر من النجاح في حال هجومه على بيازيد • وكان أهم الوفود وفد البابا اينو كونتيا الثامن الذي على كهولته ومرضه لم يكن لينصرف عن مقاصده في حث الحكام المسيحيين على شن حرب صليبية ضد تركيا • ولهذا كان بحاجة الى امتلاك أخي السلطان ، السلطان المتمرد تحت سلطته لاستخدامه وسيلة •

لكن المعلم الكبير من جزيرة رود كان يتجاوز أهدافه دائماً • ونجح في فرض رأيه على ملك فرنسا : أن يسلم جم للبابا• وفي شهر شباط ١٤٨٩ يتم تحميل جمّ مع مرافقة صغيرة على قارب متجه الى طولون • وبعد سفر صعب طويل يصلون الى تسفينا فيكيا ، حيث ينتظرهم وفد كبير من البابا • ويدخل جم الى روما محاطاً بعدد جيد من التابعين ، حيث يخرج لاستقباله الكاردينالات وكل رجال قصر البابا جنباً الى جنب مع الممثلين الدبلوماسيين • وكان جم وكل تابعيه بلباس شرقي غني التطريز وقد امتطوا صهوات خيول أصيلة• وفي اليوم التالي استقبل البابا بكل تهذيب واحترام الأمير التركي الذي طال انتظاره في قاعة الاستقبالات الخاصة • وقد رفض جمّ الانحناء أمام البابا كما يفعل كل الناس الآخرون ، بل تعانق معه وكأنهما ندان متكافئان ، وحاكم تجاه حاكم •

وأصبح بيير دە أوبيسون كاردينالاً • ولم تحصل طبقته على الاعتراف بها فقط وإنما على امتيازات أخرى حقيقية ومكاسب كبيرة من البابا •

وبعد عدة أيام استقبل البابا جمّ في قاعته الخاصة • وهناك تكلما بصراحة وانفتاح • فصرح جم بأن أمراء جزيرة رود قد خدعوه • وأنهم احتفظوا به حتى الآن في الحجز • ورجا البابا أن يتركه ليذهب الى مصر ، حيث تقيم أمه وعائلته • كان حديث جمّ انفعالياً الى درجة طفرت فيها الدموع من عيني البابا الذي واسى جم بكلمات رقيقة ، لكن ذلك كله لم يتعد حدود الكلام• واستمرت اللعبة الدبلوماسية الكبيرة حول جمّ ، واشتدت • حيث يعلن البابا حملته لتكوين جبهة من الملوك المسيحيين ضد تركيا • وكان من المفروض أن يلعب جم في تلك الحملة الصليبية دوراً هاماً ،

فكان الفاتيكان القفص الذهبي له . وقد طلب ماتيا كوفين تسليم جم له لحملته ضد تركيا . وبالمثل فعل والي مصر ، فعرض فدية مقدارها ستمائة ألف ليرة ذهبية ، ومبلغ ستين ألفاً أخرى من أم جم اذا سُلّم لهم .

وفي عام ١٤٩٠ مات ماتيا كورفين . وكان موته ضربة قاصمة لفكرة الحملة المسيحية العامة ضد بيازيد . وعندما علم بيازيد أن جم قد أصبح تحت سلطة البابا ، أرسل مبعوثه الخاص الى روما ، واستقبله البابا في قاعة الاستقبالات ، وهناك تم اكتشاف كل كذب وافتراء د. اوبيسون وظهرت مبالغ النقود التي كان يتسلّمها من بيازيد جلية بوضوح . وطلب بيازيد من البابا الاحتفاظ بجم عنده، وبالشروط التي احتفظ بها أمراء رود به ، أي مع بعض التراجعات السياسية و /٤٠٫٠٠٠/ ليرة ذهبية سنوياً . وحتى يستطيع دفع مبلغ /١٢٠٫٠٠٠/ ليرة ذهبية عن ثلاث سنوات مقدماً فقد كان لدى المبعوث أوامر تقضي بأن يرى جم بنفسه ، وأن يتأكد من أنه ما يزال حياً ، وانه فعلاً هنا . ووافق جم على مقابلة المبعوث ، لكن بصفته سلطاناً ، ومع التشريفات الرسمية كاملة . وجلس مصالباً رجليه فوق عرش خاص ، يحيطه مرافقوه ، وبجانبه أحد الكاردينالات . وقد ركع المبعوث أمام جم ـ السلطان ، وسلمه رسالة وهدايا أرسلها إليه أخوه . حيث قرأ الرسالة في أذن جم ، ومن دون أن ينظر جم الى الهدايا، سلمها لمرافقيه ليتقاسموها بينهم .

ولم يتوقف البابا اينوكنتيا الثامن عن العمل لتكوين جبهة ضد تركيا . ونفذ بيازيد خططه ضد هنغاريا والبندقية . وفي خضم ذلك كله لعبت شخصية جم دوراً كبيراً . فأرسل السلطان للبابا «الرمح الذي طعن به السيد المسيح على الصليب » ، وبقايا من عظامه

الثمينة ، طالباً منه شيئاً واحداً فقط : أن يحتفظ بجم أسيراً ، وألا يسلمه لأي شخص آخر • وطلب البابا من بيازيد عدم مهاجمة أوطان المسيحيين ، واذا ما حدث فسوف يستغل جم ، واضعاً اياه على رأس الحملة الكبرى ضد تركيا •

وفي تلك الأثناء مات البابا اينو كنتيا الثامن • وفي فترة انتخابات البابا الجديد سجن جم في قلعة القديس آنجل احتياطياً لضمان أكيد • وقد انتخب الكاردينال الحالي رود ريكو بورجيا بابا جديداً ، وهو المعروف باسم البابا اسكندر السادس • وبدا أن زمناً أفضل سيحيق بالسلطان غير المتوج للامبراطورية التركية • ذلك أنه تصادق مع أبناء البابا ، وأصبح يتحرك بحرية أكبر، وشارك في الاحتفالات، وقد ظهرت شخصية جم في تأريخ الحوادث والرسائل ورسوم الفنانين الحديثين ، وكأنه رجل في الثلاثين من عمره بدا وقد تجاوز الأربعين : أكثر بدانة ، قاتم الوجه ، مسدل الجفن الأيسر تماماً ، هكذا ليبدو « كرجل يصوب على هدف » ، مترهلاً ، معقداً صارماً تجاه الخدم ، مستسلماً لشهواته ، خصوصاً للشراب، الذي يبحث فيه عن المنام والنسيان •

في تلك الأثناء حدث بين الحكام المسيحيين الغربيين اشتباك جديد وكبير • فقد زحف ملك فرنسا الشاب كارلو الثامن بجيوشه على ايطاليا ليحتل مملكة نابولي ، التي افترضها من حقه • وأكد بنفسه أنه سيقود جيوش الجبهة المسيحية من هناك في حرب صليبية ضد تركيا • ويفعل البابا كلما بوسعه ليوقف زحفه ودخوله في إيطاليا • وفي تلك الأثناء يجري اسكندر الرابع محادثات مع بيازيد ، بل ويطلب منه المساعدة ضد ملك فرنسا ويرسل له بيازيد المبلغ المتفق عليه وهو /٤٠٠٠٠/ ليرة ذهبية مصكوكة في

البندقية ، ليكون مصروفاً سنوياً لـ جم • وفي رسالة خاصة يعرض عليه /٣٠٠٠٠٠/ ليرة ذهبيـة ليسلمه جثـة جم • وتمكن أعـداء البابا في ايطاليا من ضبط هذه الرسالة ، وأعلنوها على الملأ •

ويدخل كارلو الثامن ايطاليا ، ويفتح بسرعة البلد إثر البلد • وفي آخر يوم من عام ١٤٩٤ يدخل روما • ولم يبق أمام البابا أي طريق آخر سوى التفاهم مع الفاتح الشاب بأقـل ما يمكن مـن الخسارة والدمار • وكان أحد مطالب كارلو أن يسلمه البابا أخـا السلطان ، الذي يعزم هو الآخر استغلاله في الحرب ضد بيازيـد أيضاً • واتفقا أن يصطحب كارلو معه جم في حملته ضد نابولي ، وفيما بعد ضد تركيا • لكن البابا طلب من ملك فرنسا اعطاءه ضمانة أكيدة بأن يعيد اليه الأسير الغالي عند انتهائه من الحرب • وعقد معه اتفاقاً خاصاً لتبقى الـ /٤٠٠٠٠/ ليرة ذهبية التي يرسلها السلطان له في المستقبل •

وسلم البابا جم لملك فرنسا في قاعة الاستقبالات أمام شـهود كثيرين ومعه حاشيته قليلة العدد • وحينما أبلغ البابا قراره هـذا لجم ، صرّ جم بأنه عبد ، وبأنه سواء لديه من الذي يحتفظ بـه أسيراً ، أهو البابا أم ملك فرنسا •

وحاول البابا بكلمات معسولة إزالة شكوك جم وتهدئته • وكان كارلو الثامن لطيفاً تجاهه وتصرف معه وكأنه حاكم فعلي •

وحينما انطلق كارلو متجهاً لمواجهة ملك نابولي قاد معه جـم وحاشيته ، مصطحبين ابن البابا جيزار ، وهو كاردينال من البندقية بوصفه رهينة • لكن جيزار الخبيث هرب في الطريـق • ومرض جم ، ولم يستمر مرضه سوى عدة أيام ، حيث مات في كابري قبل

أن يصلوا الى نابولي • وكان قد أوصى رجال حاشيته الذين قضوا معه كل سني الأسر بنقل جثته الى تركيا من كل بد ، حتى لا يستغله الكفار وهو ميت • وأملى عليهم رسالة موجهة الى أخيه بيازيد يرجوه فيها أن يسمح لعائلته بالعودة الى إستنبول ، وأن يكون رحيماً بأولئك الذين اتبعوه باخلاص في أسره الطويل •

وقد أمر كارلو الثامن أن يحنط جسد جم ، وأن يوضع في صندوق رصاصي • فتناقلت الألسن فوراً خبراً مفاده أن البابا قد سمم جم ، وأنه قد سلمه مسموماً الى الملك • وأسرع مجلس الشورى في البندقية لإخبار بيازيد فوراً بموت جم ، رغبة منه في أن يكون أول من يزف تلك البشرى المفرحة الى السلطان القادر •

انتهت حملة كارلو الثامن نهاية بائسة ، وعاد كارلو الى فرنسا، حيث مات بعد فترة قصيرة • وبقي جسد جم في حوزة ملك نابولي• وقد جرت الكثير من المراسلات حول جسد الميت • لقد ابتز ملك نابولي بيازيد وأرسل البابا اسكندر السادس مطالباً بحصته • لكن ملك نابولي استولى على الفائدة كلها واحتفظ بها لنفسه • لقد خدمه ذلك الجسد الميت في عقد اتفاق مناسب جدا مع السلطان • وفي شهر أيلول ١٤٩٩ سلم الجسد الميت اخيرا الى بيازيد ، الذي دفنه باحتفال جنائزي مهيب في مقبرة بورصة ، حيث يدفن عادة الحكام الأتراك •

* * *

الفصل السادس

كان هذا هو المحور العام لحكاية جميل ، التي يمكن قصّها هنا باختصار ومن دون ترتيب . وكان جميل قد رواها بشكل مغاير نوعاً ما ، بصورة أطول وأكثر حيوية ، وبمعان لها دلالات أخرى ، حينما قصّت وحينما سمعها الراهب بيتر من صديقه الجديد . حتى صبّت الأشياء كلها في مجرى واحد : هنالك عالمان ليس بينهما ولا يمكن أن يكون أي تماس أو أي احتمال للتفاهم . عالمان فظيعان حكم عليهما بالحرب الأبدية بينهما ، وبألف شكل . وما بين هذين العالمين هنالك رجل واحد هو ، على طريقته الخاصة ، في حرب مع ذينك العالمين المتناحرين . انه ابن السلطان ، وأخو السلطان ، والسلطان نفسه في أعمق اعتقاداته وإيمانه وشعوره ، وهو في الوقت نفسه الأشقى من جميع الناس . في البداية خانوه وانتصروا عليه ، ثم خدعوه وسرقوا حريته ، واقتادوه وحيداً ومنبوذاً وبعيداً عن أهله ورفاقه الى شرخ تراجيدي علني أمام كل الناس وكأنه عمود الخطيئة . لكنه بقي بكل اصرار وكل كبرياء وشموخ في أعماقه مستمراً في وضع يبقيه فعلاً كما هو حقيقة ، دون أن يفقد هدفه من أمام عينيه ، أو أن يضعفه أمام أخيه الدموي ، أو أمام الكفار الذين خدعوه بصفاقة وابتزوه وباعوه وأعادوا بيعه .

وقد سمع الراهب بيتر من خلال تلك القصة أسماء مدن أجنبية ورجال عالميين قادريــن ، ســلاطين ، ملــوك ، البابا ، الأمــراء والكاردينالات ، والتي لم يسمع بمثلها في عمره كله ، متابعاً باهتمام التغيرات والتحركات في الحياة الغربية لـ جم ــ السلطان . ولــم يكن باستطاعته حفظ كل تلك الأسماء أو اعادتها . وغالباً ما كان يفقد ــ في أثناء سماعه ــ الخيط الذي يربط حديث الشاب ، حتى بات لا يعرف في تلك الحكاية من هو قريب من ، ولا من غش من أو اشتراه أو باعه. وحتى حينما كان الشاب يتوقف عن متابعة الحكاية، كان الراهب بيتر يفكر في حظه العاثر ، ويتصرف آنئذ وكأنه يستمع وهو حزين على الرجل الذي بدا واضحاً كم هو عزيز عليه ، فيحاول أن يقص ّ كل شيء بحذافيره وحتى النهاية .

وكان في تلك الحكاية مواضع لم تكن مفهومة كلها ، كأشعار جميل عن القدر ، عن النبيذ والســكر ، عــن الأولاد والفتيــات الجميلات ، تلك الأشعار التي كان جميل يلقيها عن ظهر قلب وكأنها أشعاره نفسه . وكانت هناك كلمات حادة وأفكار حيرته وأربكته في أحكام جميل على الباباوات ورجال الكنيسة الآخرين . لكــن الراهب بيتر اعتقد أن المكان واللحظة ليسا مناسبين للبحث بكــل ذلك وإصلاح الأخطاء وإظهار الحقيقة . وكان ذلك على الأغلب غير واضح وغير مفهوم بالنسبة إليه . والواجب أن تترك الانســان ليقول كل شيء . لقد اقترب الناس منه دائماً وفي كل مكان وزمان، حتى هنا ، بكل حرية ، وكانوا يرتبطون بــه بسرعة ويثقون بــه ويسر ّون له بسهولة . وكان هذا بالنسبة إليه طبيعياً وأمراً مفهوماً بديهياً . لهذا احترس أن يكون دائماً مستمعاً جيداً ، دائماً والآن. لكن الأمر مع هذا الشاب من مدينة سميرنا ذهب الى أبعد مــن

ذلك ، واستمر وقتاً طويلاً • كان ينسى نفسه كلياً خلال ساعات أحياناً وهو يتكلم عن قدر جم – السلطان وكأنه يتحدث عن أمر يجب أن يشرح بأسرع ما يمكن في هذه اللحظة ذاتها ، لأن الغد قد يكون متأخراً • وكان يستخدم في لحظة اللغة التركية وفي لحظة أخرى الاسبانية ، ناسياً في خضم عجلته ترجمة الأقوال الفرنسية والإسبانية التي كان يقولها عن ظهر قلب •

كان الحديث يبدأ باكراً ، في ظل مظلة حار يقصر ويقصر بمرور الوقت ، ويستمران به في أماكن أخرى متطرفة من الفناء الكبير ، هاربين من حر الشمس ومشاجرات وألعاب المساجين الهجومية والصاخبة •

ولاحظ الراهب بيتر أن حاييم يتحاشى الاقتراب منه مطلقاً في أثناء تلك الأحاديث ، فلا يقترب منه إلا حينما يلتقيه بمفرده • وإذا حدث واقترب أحد المساجين وكأنه عابر بالمصادفة ، وحاول سماع شيء من وشوشة الشاب ، كان جميل يسكت فجأة كمن استفاق وهو يمشي في نومه من شروده الخطر ، فيتوقف في صمت مغلق مع قول « نعم نعم ! » بشكل ميكانيكي متقطع غير صريح ، ثم يودعه بسرعة وبرودة بكلمات لا معنى لها ، و يذهب •

وكان يظهر في نهار الغد وهو على ما هو عليه من الإشراق والسرور المشوبين بآثار غير واضحة من ندم ليلي ، وقرار متخذ ، صامتاً ومنسحباً الى نفسه • وبابتسامة خفيفة غير معبّرة لا تفتأ أن تمحي ، يبدأ حديثه بكلمات عادية حول أشياء يومية طبيعية • لكن هذا كان يستمر وقتاً قصيراً • وخلال الحديث كان وضعه النفسي يتغير بشكل غير ملحوظ ، غير ملحوظ بالنسبة إليه نفسه وبالنسبة إلى الراهب بيتر • ومن دون أن يعرف كيف ، ولا من أين،

ولا لماذا ، كان يستسلم لولهه ، ويقص على الراهب بيتر ـــ بصوت هادىء حيوي ، وكأنه يعترف ـــ حكاية جم" وقدره .

في اليوم الثالث كان قد أنهى قص التاريخ كله ، حتى النهاية الاحتفالية والحزينة ، حتى المقبرة المضيئة والجليلة في بورصة ، التي زينت جدرانها البيضاء بأجمل السور القرآنية المكتوبة بنظام أخاذ بمحلول البوتاسيوم على شكل زهور غريبة وكريستالات مرصوفة. وعند ذلك بدأ الحديث عن مواقف متفرقة بكل تفاصيلها. مواقف تتوالى كعقد أيام جم السعيدة والتعيسة ، مقابلاته وصداماته، حبه وكراهيته وصداقاته ، محاولات هربه من الأسر المسيحي ، آماله وخيباته ، تفكيره بالقلق الطويل وأحلامه الهزيلة في ساعات النوم القصيرة ، أجوبته المشحونة بالكبرياء والمرارة للشخصيات المرموقة في فرنسا وايطاليا ، المونولوغات الغاضبة في وحدته وأسره، التي بدت وكأنها لا تقص بصوت جميل وإنما بصوت آخر .

ومن دون مقدمات ولا ترابط ظاهر ، ولا تسلسل زمني ، كان الشاب يبدأ حكايته بمنظر من الوسط أو من نهاية فترة أسر جم . كان يتكلم بصوت خفيض ، منكس النظرات ، من غير كبير اهتمام بزميله ، أيسمعه ، أو هل يمكنه أن يتابعه ؟

ولم يتذكر الراهب بيتر بالضبط متى بدأت في الحقيقة تلك الحكاية التي لا ترتيب لها ولا نهاية . ولم يلاحظ فوراً ـــ اللحظة الصعبة والحاسمة ـــ التي انتقل فيها جميل بوضوح ، أول مرة ، من التكلم المباشر عن أقدار غيره الى لهجة الاعتراف الشخصي، وأصبح يتكلم بصيغة المتكلم المفرد .

« أنا ! ـــ كلمة صعبة ، تبدو لأعين الناس الذين تقال أمامهم وكأنها تحدد مواقعنا ، القدري والثابت ، على الأغلب قبل أو بعد ما

عرفناه عن أنفسنا ، خارج رغبتنا وفوق قدرتنا • إنها الكلمة الفظيعة التي حينما تقال مرة تربطنا الى الأبد ، وتقارننا بكل ما فكرنا فيه وقلناه حول أمور لم نفكر أبداً أننا قرّرنا بها ، على الرغم من أن ذلك قد حدث حقيقة في أنفسنا منذ زمن بعيد » •

استمر الراهب بيتر في سماع الحكاية بصورة أكثر تأكيداً ، بقهر وحزن وقلق لا يمكن إخفاؤه • وحينما كان يفترق عن جميل مساء ويفكر فيه وفي حادثته ــ وكان من المستحيل ألا يفكر في ذلك ــ كان يؤنب نفسه لأنه لم يوقفه بإصرار ووضوح حتى لا يوغل في الطريق الذي لا يقوده إلى ما هو جيد • لأنه لم يهزه وينتشله من أوهامه ، ومع ذلك وحينما كانا يتقابلان ثانية في نهار الغد ، وعندما يترك الشاب العنان لأوهامه المريضة ، كان يسمعه ثانية بقشعريرة خفيفة وعزاء عميق وحيرة دائمة ، هل يقاطعه ويعيده الى نفسه ! وحينما يتذكر قراره المتخذ ليلة البارحة والذي عده في تلك اللحظة واجباً ويحاول حرف الحديث الى مسألة أخرى أو أن يبدي ملاحظة عابرة وكأنها بطريق المصادفة لينتزع جميلاً من حديثه عن السلطان ــ جم الميت ، فانه كان يفعل ذلك بشكل واه وبغير اصرار • كان يشعر بأسى عميق نحوه • حتى بدت مقدرته على المبادرة وحسن الاستقبال البسيط المفرح ، التي كان يستطيع دائماً من خلالها أن يقول لأي شخص كل شيء ، وكأنها مخدرة أو كأنها تتموت بتأثير حديث الشاب • وكان الأمر ينتهي دائماً بتراخي الراهب بيتر في النهاية ، واستمراره في سماع الهمس المتحمس للشاب ، بصمت ، دون أن يوافقه أو يبدي مقاومة صوتية من ناحيته • لقد كان غير الممكن ، والذي لم يحدث ، ومن غير الضروري أن يحدث ، أقوى من الممكن ، الذي يحدث ، وكان يجب أن يحدث جلياً بوصفه حقيقة وحيدة ممكنة • وثانية يعود الراهب بيتر الى لوم نفسه وتقريعها لأنه

تراخى هذه المرة أيضاً أمام تلك الموجة المجنونة التي لا تقاوم ، ولأنه لم يقم بجهد أكبر ليعيد الشاب الى طريق العقل • حتى شعر في تلك اللحظة وكأنه شريك في الخطأ ، في هذا الجنون • وقرر أن يفعل غداً بالتأكيد ما فاته اليوم ، وفي أول لحظة مناسبة •

واستمرت هذه الحال خمسة ــ ستة أيام • حيث يبدأ الحديث كل صباح في الساعة ذاتها كاحتفال محدد بدقة ، ويستمر حتى قبيل المغرب بقليل ، يتخلله انقطاعين أو ثلاثة انقطاعات • وقد بدت حكاية جم ــ السلطان ومصائبه وأعماله الخارقة وكأنها لا تنضب • وفي أحد الصباحات لم يظهر جميل • بحث عنه ، وانتظره ، وتمشى قلقاً في كل أرجاء الفناء • واقترب حاييم منه في ذلك اليوم مرتين ، تسبقه رغباته غير المستقرة دائماً ، وحديثه عن الخوف من الظلم السائد في بلــدة سميرنا ، وعن الأفخاخ المنصوبة بكل الأشكال هنا ، وعن المتابعــة والتجسس هنا في الفناء الملعون • وكان الراهب بيتر يسمعه شارداً وهو يفكر آنئذ في الغائب جميل •

خيل إليه أنه يراه ويسمعه البارحة تماماً ، قبل أن يتودعا • كان يتكلم بسرعة وكأنه يقرأ :

ــ وقف جم منتصباً ، ببذة رسمية رائعة ، على متن السفينة الواقفة في ميناء جيفيتا فكيا ، وهو يراقب أرتال جيش البابا مختلفة الألوان ، المصطفة بألبستها الرسمية ، ورجال الكنيسة المحترمين ، وفكر بحيوية ووضوح كما نفكر في تلك الساعات التي نبتعد فيهــا عن مكان اقامة سابق ولم نصل بعد الى مكان اقامة آخر • فكر هادئاً في حظه العاثر ، ونظر بوضوح وقسوة كرجل يمكــن أن يستشف سماعياً من فم الأغراب حظه الخفي غير المرئي •

وها هم يستقبلونه في كل مكان . انهم رجال أغراب يشبهون جداراً حياً يسوّر أسره . وما الذي يمكن انتظاره أصلا من هؤلاء الرجال ؟ أهو العطف ؟ والعطف هو الشيء الوحيد غير الضروري له ، والذي لم يحتاجه في حياته . أهي المشاركة الوجدانية التي أظهرها له أحياناً بعض الناس القليلون الجيدون الأغنياء بأرواحهم ؟ تلك المشاركة التي لم تكن تعني له سوى المقياس لمدى حظه العاثر الشرير والذل الذي لا مثيل له . إن العطف لثقيل ومُحَقِر" حتى لأولئك الموتى فكيف به للأحياء الأصحاء الواعين لكل شيء . وكيف بامكانه النظر بحيوية الى عيون أناس أخيار ليقرأ فيها شيئاً واحداً : العطف؟.

لقد رغبت فعلاً في جعل كل ما يوجد في هذا العالم وسيلة أستطيع من خلالها فتح العالم والانتصار عليه ، والآن جعل هذا العالم مني وسيلته .

نعم . من هو جم جمشيد ؟ عبد ؟! لا ، إنها كلمة صغيرة . إنه العبد ، العبد الغبي الذي يسحبونه موثقاً بالسلاسل من ساحة إلى ساحة ، الذي ما زال لديه أمل بعفو سيده المحترم ، أو بدفع ديته ، أو بالهرب . ولم يكن باستطاعة جم انتظار العفو ، ولا يمكن له قبوله حتى لو أراد الآخر أن يهبه له . دفع الدية ؟ لا أحد يجمع الدية لدفعها من أجله ، بل بالعكس ، إنهم يدفعون ثروات كاملة من هذه الجهة وتلك ليبقى أسيراً عبداً ووسيلة ، حتى لا يدفع ويتحرر « كانت أمه هي الاستثناء الوحيد ، تلك المرأة المصرة ، الرائعة ، المخلوق فوق كل المخلوقات ، لكنها بجهودها غير القادرة كانت لا تزيد إلا من ثقل ذله » . الهرب ؟ من الصعب على العبد الذي فقد اسمه أن يهرب من السلاسل ، وحتى لو تمكن من الهرب يبقى الأمل لديه ضئيلاً دائماً في تمويه الأثر على مطارديه ، أو الوصول الى عالمه

الذي سيستطيع العيش فيه انساناً حراً من دون اسم بين أناس أحرار لا أسماء لهم • عدا عن أنه لا توجد بالنسبة إليه أية ظروف ملائمة للهرب • إن كل هذا العالم المعروف لكم ، والمأهول بكم ، مقسم في حقيقته الى طابورين ، تركي ومسيحي ، وفي كليهما لا يوجد له مكان آمن ، فهو هناك أو هنا يمكن أن يكون شيئاً واحداً : سلطاناً خاسراً أو منتصراً ، حياً أو ميتاً ، لهذا فهو عبد ليس له مهرب حتى ولا في الأفكار أو الأحلام • عدا عن أن الهرب هو طريق الناس الأقل شأناً والأكثر حظاً منه ، وهو المكتوب عليه أن يكون سلطاناً دائماً ، ولا شيء غير ذلك ، وفقط في هذا الاتجاه يكمن خلاصه • لا أقل من السلطان ولو بشعرة واحدة لأن ذلك سيعني ألا يكون أكبر ولو بشعرة واحدة • هذا ولا شيء غيره • لكنه الأسر والعبودية التي لا مفر منها ولا مهرب ، حتى ولا بعد الموت •

اصطدمت مقدمة المركب صدمة صماء على صخور الشاطىء • وكان الصمت مخيماً الى درجة سمعت بها تلك الصدمة وكأنها ضجة مكتومة سارت على طول الشاطىء الذي وقف جميعهم على ضفته ، من الكاردينال حتى سائسي الخيل ، وهم يحدقون الى الرجل الأهيف بعمامته البيضاء المشغولة بالذهب فوق رأسه ، المتقدم أمام حاشيته بثلاث خطوات وقد وقف كتمثال • ولم يوجد بينهم أي رجل لم ير فيه السلطان أو يتأكد من أن هذا الأهيف المنتصب لا يمكن أن يكون شيئاً آخر أبداً ولو قضى حتفه في سبيل ذلك •

انتصب جميل فجأة وهو يقص ذلك « حتى لا يسمح للحراس بطرده الى غرفته كباقي المساجين • وكان من عادته أن ينطلق لها من تلقاء نفسه حتى قبل الوقت المحدد بقليل » • وبعد سلام قصير معتاد غاب في إحدى عطفات الفناء الملعون ، الذي ابتدأت أول خيوط الليل تحتل بعض زواياه البعيدة •

الفصل السابع

ولم يظهر الشاب في اليوم الثاني ، ولا في اليوم الثالث • وزهاء الظهيرة جاء حاييم ملقياً نظرات فاحصة حريصة على كل مكان من حوله • وقال إنه قد حدث الجميل « ما لا تحمد عقباه » • ولم يكن باستطاعته أن يقول أكثر من ذلك •

وبعد يومين لم يهدأ حاييم خلالهما ، جاء وبحوزته حكاية محبوكة عن اختفاء جميل •

كان أول ما فعله ، وهو عابس الوجه منكس الرأس ، أن دار حول المكان الذي تواجد فيه الراهب بيتر ، مكوناً دوائر عادية كبيرة وبيضوية ، أصبحت تضيق وتضيق ، وهو يرسل النظرات الخفية الى كل ما حوله ، محاولاً كما بدا بوضوح اظهار حديثه وكأنه لقاء مصادفة عابرة في أثناء مروره، وهو غير واع بالطبع كم كانت احتياطاته تلك عبثية ومكشوفة • حينما وصل الى جواره سأله بصوت مخنوق:

ــ هل استجوبوكم ؟

ــ لا •

ردّ الراهب بيتر بصوت مسموع ، وقد ابتدأت احتياطات حاييم تصبح مملة لديه •

لكنه ـ أملاً في علم حاييم بشيء عن جميل ـ قال بصوت أخفض :

ـ لم يفعلوا . ماذا هناك ؟

عندئذ ابتدأ حاييم الحديث ، مصراً أن يبقى عند بدئه به كرجل توقف فترة قصيرة في أثناء مروره بطريق المصادفة ، وأنه سيستمر بسيره فوراً ، وهو يرسل نظرات قصيرة من حوله . لكنه سرعان ما ابتدأ ينسى بالتدريج ويتكلم بحيوية أكثر دون أن يرفع صوته .

وحقيقة ، كانت فيما قصّه من أماكن وحوادث غير واضحة ، ولا يمكن تفسيرها ، ولهذا بدت الأماكن الأخرى في حديثه محكية بشكل دقيق مفصل وكأنه شاهدها بأم عينه . كان حاييم يعرف كل شيء ، بل ويشاهد حتى الأشياء التي لا تمكن مشاهدتها .

حينما انسحب جميل مع أول خيوط المساء الى غرفته التي قفلها الحارس من خلفه ، كانت الرؤية ما تزال واضحة داخل الحجرة . وفي صحنين لامعين وضع العشاء مسبقاً بقصد تبريده ، وهو عشاء لا يحصل على مثله بقية المساجين . وكان كل شيء عادياً كما هو في كل ليلة : التمشي بين زاوية وزاوية ، وانتظار المنام الذي يعرف مسبقاً بأنه لن يأتي . وكانت الأصوات الأخيرة الآتية من أسفل الفناء تخرس ببطء ، والظلام يبتلع الجدران البيضاء والأشياء ، حتى يضغط الحجرة من حول الرجل الصاحي . وابتدأ عالم ليلي جديد بالتشكل . وابتدأت تظهر فيه أصوات ناعمة غير حقيقية ، واضاءات، نتيجة لعبة السمع والبصر في الظلام والقلق . وفي لحظة كهذه لم يعرف هو ما هي ، سمع صوت بحث المفتاح عن ثقب القفل حتى ولجه . ولم يكن هذا خداعاً صوتياً . لقد انفتح الباب حقيقة ، وظهر

نور خفيف من فرجته ، ودخل الغرفة رجلان أسمران من دون جلبة ، ومن خلفهما شاب حمل مصباح كاز وقف من فوره على طرف ورفع المصباح الى الأعلى ، وتسمر هكذا من دون حراك •

انتشر الضوء عليهم جميعاً • كان أحد الرجلين سميناً ، وكل ما عليه مترهلاً وطرياً : منظره الخارجي ، وصوته وحركاته • وكان الثاني نحيفاً مكوناً من عظم وعضلات تحت جلد أسمر ، وقد اختفت عيناه الكبيرتان تحت سواد الظل ، والتمعت يداه الكبيرتان المخيفتان تحت الضوء • وقد بدا من هيئتهما أنهما رجلان ممثلان للعدالة السلطانية ذات الوجهين • تحدث الأول منهما فقط قائلاً بصوت عميق « عمقاً رهيباً » • مساء الخير • وابتدأ كل شيء •

وبصوت ناعم مشحون بالخطر ، قال الضابط الأول إن الاستجواب الأولي كان ذا طبيعة شكلية ، وإن الأجوبة كانت شكلية أيضاً ، وإنه لا يمكن التوقف والابقاء على تلك الحالة •

ــ أنتم مضطرون يا جميل أفندي أخيراً أن تقولوا لنا لمن كنتم تجمعون تلك المعلومات عن السلطان ــ جم ، وقد أحكمتم خطة مشغولة بأدق تفاصيلها بطريقة الثورة على السلطان الشرعي والخليفة • واكيف تدبرون الوسائل والطرق لاقتناص العرش بمساعدة الأعداء من الخارج •

ــ لمن ؟ ــ قالها الشاب خفيضة كالأنين ، وكله في وضع دفاع عن النفس •

ــ نعم ، لمن ؟

ــ لنفسي وليس لأي أحد آخر • لقد درست ما هو معروف بتاريخنا ، تعمقت فيه •

ـ وكيف ؟ من بين كل تلك المواضيع التي يؤلفون حولها الكتب والعلم لم تتنقوا بالضبط إلا هذا ؟

سكوت .

« كان حاييم قد نسي حرصه نهائياً ، فأخذ يتكلم بحيوية ، مع حركات تعبيرية صاخبة من وجهه ويديه » .

ـ اسمعوا ـ تابع الضابط السمين بصوت رسمي هادىء متعال ـ أنتم رجل عاقل ومتعلم ، من عائلة عريقة . وكما تلاحظون بأنفسكم فقد وقعتم في عمل لا تحمد عواقبه ، أو إن أحداً غرر بكم . أنتم تعلمون بأنه اليوم ، كما كان بالأمس ، يجلس على العرش السلطان والخليفة « وهبه الله طول العمر وموفور النجاح ! » . وان ما انتقيتموه لم يكن موضوعاً موفقاً حتى ولا للتفكير ، فكيف به للدراسة والتحميص والكتابة ، بل وللحديث أيضاً . أنتم تعلمون أن الكلمة إذا قيلت في مجاهل الغابات لا تبقى في مكانها ، وخصوصاً حينما تكتب أو حتى تقال للآخرين ، كما كتبتم أنتم في مدينة سميرنا ، وتحدثتم . لهذا فسروا لنا هذا الأمر ، وقولوا كل شيء ، وسيكون ذلك أسهل علينا وأفضل لكم .

ـ كل ما تدعونه ليست له أية صلة بي ، ولا حتى بتفكيري .

كان صوت الشاب يشع صراحة وصدقاً ، بمسحة حزن عميقة . وعندئذ ترك الضابط وضعيته الرسمية المحترمة ، واتخذ صوته الطابع الحقيقي الطبيعي بالنسبة إليه :

ـ انتظروا قليلاً ! لا يمكن أنه ليس لكم علاقة . كل شيء له علاقة بكل الأشياء . أنتم رجل متعلم ، لكن نحن أيضاً لسنا جهلاء

تماماً • لا يمكن أن يشغل الانسان نفسه بمثل هذا العمل وضخامته هكذا بالمصادفة أو من دون هدف ما •

كان المتكلم دائماً هو الرجل البدين دون غيره • وكان جميل يمعن التفكير فيما يسمعه من هذا الضابط ، مجيباً بغير وضوح ، صائحاً :

ـ هدف ! أي هدف ؟

ـ هذا ما نريد أن نسمعه منكم بالضبط •

لم يتكلم الشاب • فظن الرجل البدين أنه قد نجح في زعزعته وزرع الحيرة في نفسه ، فاستمر بثقة وهو يمطّ الحروف :

ـ إذاً ، أرجوكم !

قيلت العبارة الأخيرة بصوت أقسى وأتشف ، بطريقة جديدة ولهجة تهديد انعدم فيها الصبر •

أرسل الشاب نظراته الى الزوايا المعتمة من حوله ، وكأنه يبحث خارج هذه الدائرة الباهتة عن شاهد • وفكر كيف سيقول كلمة واحدة أو جملة واحدة بامكانها أن تزيل عدم التفاهم الغبي هذا ، أن تفسر وتثبت أنه ليس هناك من هدف ، وأنه ليس من الضروري أن يشرح ويكون مسؤولاً ، ولا هو بقادر على ذلك ، على الأقل في هذه اللحظة ، هنا وبهذا الشكل • واعتقد أنه إنما يقول ذلك لكنه في الحقيقة كان صامتاً ، في حين تكلم الرجلان « الآن يتحدد الضعيف أيضاً » بسرعة واصرار ، وبالتناوب :

ـ تحدثوا !

ـ اعترفوا • ذلك أفضل لكم وأسهل •

ـ أخبرونا بكل شيء • متى بدأتم ؟

ـ بالتحديد ، لأي هدف ، ولحساب من ؟

كانا يغرقانه بالأسئلة • وكان الشاب يغمض عينيه من الضوء ، وهو يرسل نظرات خائفة الى الزوايا المعتمة • كان صعباً عليه أن يجد نفسه ، غير موفق أو قادر على حسن الفهم ، أو التمييز بين الأسئلة• وفجأة لاحظ أن الرجل النحيف اقترب منه أكثر ورفع صوته وابتدأ بمخاطبته بصيغة المفرد •

ـ هيا ، هيا ، تحدث !

وفي تلك اللحظة توقف انتباهه كله • أحس بعار يحتله ، شعر بتخلفه ، وضعفه ، بل وبانعدام قدرته على الدفاع • وأيقن أن خطيئته وتعاسته لا تكمنان في شيء من « أهدافه » وانما كانت تتلخص في قدرتهم على جر الانسان « أو اضطراره الى المجيء من تلقاء نفسه » الى وضع يستطيع فيه أناس كهؤلاء أن يستجوبوه حول ذلك • كان يريد أن يقول ذلك ، واعتقد أنه قاله ، لكنه كان صامتاً •

هكذا سارت الأمور واستمرت طويلاً • وفي لحظة من تلك الليلة ، هي خارج الوقت الذي تقيس فيه الشمس اليوم بشروقها وغروبها ، في لحظة خارج كل العلاقات الانسانية ، اعترف جميل بكل صراحة وكبرياء بأنه يشارك جم ـ السلطان وجدانياً ، ذلك الرجل التعيس الذي لا يشبه بتعاسته أحداً ، شبيهه الذي انخرط في ضيق لا مخرج منه ، والذي لم يشأ ولم يستطع التنكر لنفسه بألا يكون ما هو حقيقة •

ـ أنا هذا ! ـ قالها مرة أخرى بصوت خفيض ، لكنه قاس، كان بمثابة الاعتراف النهائي والرئيسي ، وهبط فوق الكرسي •

استسلام الضابط البدين بحركة سريعة تلقائية وسكت • لكن الضابط النحيف ، وكأنه لم يشعر بشيء من تلك الفظاعة الرهيبة نجاه رجل بدا واضحاً أنه اختل وفقد توازنه ، وأنه وضع هكذا خارج العالم وقوانينه مرة والى الأبد ، استسهل بغبائه وقصر نظره وثورنه الأمر ليستغل المكان الشاغر الذي تركه له زميله الأذكى ، فطرح أسئلة جديدة بهدف انتزاع اعتراف الشاب بمؤامرة حيكت في مدينة سميرنا على كل حال •

كان جميل يجلس على كرسي واطيء لا مسند له ، وقد بدا منهكاً غارقاً في داخل نفسه كلياً • تمشى الضابط النحيف متلاعباً من حوله ، متهكماً في وجهه ، حتى خيل إليه الآن أن ما يراه أمامه هو جسد فاقد الارادة والوعي • صار بامكانه أن يفعل فيه ما يشاء • وهذا ما أثاره أكثر وأغراه ليصبح أقل صبراً واعتباراً وتفهماً • وفي لحظة ما بدا كأنه قد مد احدى كفيه الفظيعتين ليضعهما على كتف جميل • لكن الفتى الغارق في المرارة ، الشاعر بالغثيان والقرف من هذا التماس المقرف ، دفعها بقوة • وعندئذ ، وبلمح البصر ، تولدت مشاجرة حقيقية شارك فيها الضابط الثاني أيضاً • كان جميل يدافع عن نفسه ويهاجم بقوة وعنف لم يستطع أحد التنبؤ بهما • في تلك الزحمة وقع الفتى الواقف مع مصباحه الذي كان يحمله ، وحينما استطاع الانسحاب من هذا الشرك المجنون ، من تلاطم اليدين والرجلين والضربات ، ركض خارجاً • وبينما كانت الحرب قائمة داخل الحجرة في الظلام ، تهيج الطابق كله « من الشاب الهارب والمساجين الذين استيقظوا » • وقد علم الفناء كله بهذا الحدث الليلي مع شاب مدينة سميرنا ، وكل ما يهمس به في الفناء يعلمه حاييم فوراً •

في تلك الليلة حملوا جميلاً وأخرجوه من أحد الأبواب الرئيسية للفناء الملعون •

ــ أميت أم حي ؟ أين أخذوه ؟

فكر الراهب بيتر متهيجاً ثائراً • أما حاييم فكان قد أجاب عن هذا السؤال أيضاً :

إذا كان حياً فقد حملوه على الأغلب الى تيمار خان ، جانب السليمانية حيث يسجنون المرضى الروحيين • وهناك ، بين أولئك المجانين ، ستصبح حكاياه عن نفسه بوصفه خلفاً على العرش مثل كل الكلمات والأحاديث التي يتداولها المجانين ، أحلام مريضة غير خطرة لا يلتفت اليها أحد • وفي كل الأحوال فان رجلاً مختلا ومريضاً لن يعيش طويلا ، بل سيفقد بسهولة وسرعة من هذا العالم مع أحلامه المريضة ، دون أن يضطر أحد أن يكون مسؤولاً أمام أي شخص •

على كل حال ، إن كانت المعركة قد حدثت بكل شراستها ، وإذا كان الشاب فيما أظهر من مقاومة خلال معركته مع الرجلين قد استطاع جرح أحدهما « وكما يبدو كان الأمر كذلك ، فقد اضطروا بعدها الى غسل الغرفة من آثار الدم » عندئذ يغلب الظن بأن رجال السلطان قد أفرغوا كل غلهم به ، فالضربات هنا لا يمكن أن تكون موزونة ، وإنما تشطح بسهولة الى أبعد مما هو ضروري • وفي تلك الحالة لا بد أن ابن طاهر باشا قد أصبح في القبر • وقبر كهذا له حجر أبيض ولا كتابة على شاهدته ، لن يتكلم عن أي شيء ، خصوصاً عن السلاطين أو خلافاتهم وحروبهم مع منافسيهم •

وبعد أن أتم حاييم قصّ حكايته هذه حتى نهايتها عاد وتذكر ثانية « الأخطار » المحيطة به ، وذهب بعيداً من دون وداع ، وهو

يرسل نظراته المتفحصة من حوله ، محاولا الظهور كرجل يتمشى من غير هدف محدد في الفناء الواسع .

صرّ الراهب بيتر بأسنانه غيظاً لقدره هذا ، لكل ما هو حوله، حتى لهذا البريء حاييم ، وحاجته الأبدية الى معرفة كل شيء ونقله ونشره بأدق تفاصيله . وقف في مكانه بلا حراك ، ومسح العرق البارد عن جبينه ، وهو ينظر دون أن يفهم أو يعي شيئاً الى الأرض الفضية المربوصة والجدران البيضاء أمامه ، وكأنه يراها أول مرة ، شاعراً كيف تنتشر في جسمه كله موجة باردة رقيقة من الخوف ، لعلهم لن يسألوه أو يستجوبوه بسبب أحاديثه مع جميل ، ولا يجبروه مرة أخرى وهو بريء على استجواب لا أمل منه . وعلى الرغم من أن حاييم هذا رجل مختل وأنه يرى الأخطار في أماكن لا توجد فيها ، لكن كل شيء محتمل .

ثم ضغطت تلك الأفكار بسرعة أفكاراً أخرى : ما الذي حدث لجميل ؟ . وثانية تتصاعد حرارة مريضة لتغمر الآن كل شيء ؛ وأسف ثقيل لا يمكن تحمله هكذا والانسان في وضع السكون والحيرة الكاملة . أحس بحاجة شديدة الى تغيير مكانه ، ليسمع ويرى أناساً آخرين ، أناساً بعيدين عن هذه الحكايا السوداء العقيمة من بلدة سميرنا ، ليرى أناساً لا فرق كيفما كانوا ، المهم أنهم خارج هذه الشبكة المجنونة التي يحيكها ويشدها ويضغطها مرضى بعضهم بين بعض ، مرضى خرجوا عن طريق العقل ، وشرطة السلطان الذين فقدوا الروح والعقل ، خارج هذه الشبكة التي ها هو نفسه قد شبك واصطيد بها من دون جرم ولا خطيئة .

سار خلال الفناء باتجاه الزوايا المخفية الظليلة ، حيث كانت أكوام مبعثرة من المساجين تهرج في خصام أو لعب ومزاح .

الفصل الثامن

بعد يومين ــ ثلاثة ، بدا واضحاً أنهم لــن يستجوبوه بسبب أحاديثه المطولة مع جميل . وهذا يعني أن كل شيء قد انتهى ــ قد تم دفنه . تلاشى الخوف والانتظار والقلق ، لكن الأمر لم يصبــح أفضل ولا أسهل . بالعكس . لقد ابتدأ الوقت من دون جميل ، لا يمكن أن ينساه ، على الرغم من شعور يستقر في أعماقه بأنه لا يمكن أن يأمل برؤيته ثانية .

ما يزال الوقت صيفاً حقيقياً حاراً . وكل شيء في الفناء كما هو دائماً . يطلقون سراح بعضهم ، ليأتي مكانهم آخرون ، وهو ما لا تمكن ملاحظته بدقة . كلهم ثانويون وغير مهمين ، فالفناء يعيش من أجل نفسه ، بألف تغيّر وتغيّر ، ودائماً على حاله كما هو . ففي كل صباح تتجمع في الظل حلقات المساجين نفسها أو حلقات المساجين نفسها أو حلقات مشابهة . ويقف الراهب بيتر عند الحلقة الأولى « حلقة الجيران » . هنا كله مثل بعضه . ظل زعيم يتزوج ويطلّق بالقدر نفسه ، دائماً مع نساء جديدات ، ودائماً يقذفه بعضهم بتهمة الكذب بغلاظة ، في حين يستمع إليه الآخرون . إنه باهت اللون ، بوجهه الأخضر المسوّد وكأنه مريض باليرقان ، حيث تكون نظرتــه دائماً لا علاقة لها مع ما يقوله ، يتسكع ، مسكين ومجنون مــن

الخوف والأفكار المكبوتة حول العقاب الذي ينتظره ، إذا ثبت عليه ما هو متهم بـــه .

وكان الآخرون يتكلمون عن النساء أيضاً ، لكن بطريقة أخرى. حيث يعلو على كل الأصوات صوت رجل رياضي قوي البنية، بغلاظته وخشونته كآلة الكونترباص ، لكنهم يسكتونه هنيهة ليسمع مـــع الآخرين كيف يتكلم البحّار العجوز عن اليونانية الصبية التي كانت تخدم في خمارتهم .

ـــ لم أر في حياتي أضخم وأقسى جسداً منها ، سفينة تمشي، تحمل نهديها أمامها كوسادتين ، ومن خلفها تهتز إليتان مهجورتان ، تطحنان وتطحنان، وكل يمد يده ويمسك بها في الموضع الذي يستطيع وقدر ما يستطيع . وهي تدافع عن نفسها ، ويدافع صاحب الخمارة عنها ، ذلك اليوناني الذي اقتلع بعض أسنانه وبقي بعضها . لكن من يستطيع ربط أيدي البحارة الذين لا يلبثون بعد قليل أن يعودوا الى قرصها ؟ . وأخيراً ، اضطرت الى ترك الخدمة . هذا ما يقولـــه صاحب الخمارة على الأقل ، لكن لا ، فهو الذي خبأها في بيته ، إنه ذئب يحتفظ بها لنفسه . يؤنبه البحارة ويتأوهون :

ـــ أخ ، خسارة ، امرأة كهذه مثل حزمة القمح ، مثل حزمـــة القمح ، مثل حزمة القمح ! . فيقول اليوناني لنفسه أكثر مما يقول للآخرين : « لو استمر الأمر على تلك الحال ، بأن يقرصها كل من يصل اليها ، ما الذي كان سيحصل ؟ كانوا سيفرطونها ويحملونهـــا سنبلة اثر سنبلة حتى تنهي الحزمة . إنهم ملاعين ! » .

ـــ أخ ! ـــ يحتج الصوت الأجش كآلة الكونترباص ـــ أخ ، أخ ، يا لكم من حمقى لا تجيدون الكلام إلا عن عاهرات الخمارات كهذه العاهرة ! عن كل ما هو مقرف فقط ، أخ ! .

وتقوم التفسيرات ، التي يخرج منها الكونترابابص منتصراً ، حيث يشترك جميعهم في إسكات البحّار طالبين استمرارالكونترابابص في قصّ حكايته التي كان قد بدأها سابقاً • فيستمر بقصه المثير ، غير الواضح تماماً ، عن امرأة فائقة الجمال ، أصلها من كروزيا • امرأة فعلت هنا في استنبول الأعاجيب ، وماتت وهي ما تزال صبية•

ــ إنها من ذلك النوع من البشر : كانت جدتها ملكة جمال ذاع صيتها • جنّت من أجلها كل مدينة تيفلس • نعم • لقد خبؤوها عند أقاربهم في إحدى القرى ، ليبعدوها عن تيفلس • وظلت تلك القرية تسمى حتى اليوم باسمها : « الحمّالات السبعة » • وقبل ذلك كانت تدعى باسم آخر لا أعرفه • فمن أجلها وأجل جمالها وقعت رؤوس سبعة قتلى مضرجة بالدماء خلال نصف ساعة فقط حول بيتها • لقد تقاتل الخطابون والمختطفون• ولف السواد ثلاث عائلات، وماتت هي من الحسرة • لم تذبل ببطء ، وإنما فوراً ، كأن الجليد حصدها خلال الليل • حتى إنها لم تشأ وهي تموت ، البوح باسم الرجل الذي أحبته ، ولا أن تجيب عن سؤال أكان المعني أحد أولئك المقتولين أم أنه ما يزال بين الأحياء • وهكذا ورثت الكروزية عن جدتها تلك ذلك الجمال والقوام والعينين •••

ــ نعم ــ قال أحد الرجال من الحلقة ــ من المعروف أن بنات كروزيا يملكن عيوناً فاتنة •

ــ ما هو المعروف ؟ ومن أين معروف ؟ ماذا تعرف أنت يا أعمى عن هذه الأشياء والأعمال ؟

ــ كيف لا أعرف ؟ وكأنك الوحيد العارف في هذه الدنيا !

احتجت بعض الأصوات •

ـ لا تقاطعوا الرجل ، دعوه يتكلم •

بهذا طالب الآخرون •

ـ تكلم أنت يا سُمَيي ولا تلتفت الى كائن من كان •

كان هذا بمثابة الرفض للرجل الضخم ، ذي الصوت الأجش ، وتعابير الوجه الناقمة ، وحركات اليدين الغاضبة •

ـ لا قوة لي على الكلام يا هذا • ماذا ينفع الكلام مع كلب أعمى كهذا ؟

ويصر جميعهم مطالبينه بالكلام • وأخيراً ، كما هي العادة دائماً ، تراه يهدأ على شكل ما ليستمر بقصته عن المرأة الكروزية وعينيها ، وهو ما يزال عاتباً وغاضباً •

ـ وحينما يقول لي أحدهم «كانت فلانة تملك عينان رائعتان» تظلم الدنيا أمام ناظري • أية عينين ! أدعو الله أن تسير أعمى فوق عماك ! حينما تنظر إلى تلك العينين ، فأنت لا يمكن أن تفكر بهذين المنظارين اللذين يحملهما كل منا في رأسه ، وإنما ستفكر في حقلين سماويين من الشمس والقمر ناعسين • أية نجوم وغيوم هي وأية غرائب مزروعة في ذينك الحقلين ! مسكين يا سُمَيي ! تراهما فتتحجر أولاً ، ثم تذوب • ببساطة لن تعود موجوداً ! أكل هذا « مجرد عينين » ؟! صحيح أنهما تستعملان للرؤية كغيرهما ، لكن هذا هو الأقل أهمية ، هذا هو الشيء الأخير بالنسبة إليهما • أتقول عينان ؟! قل لي ما هي وما نفع عيوننا الصغيرة التي نحملها على رؤوسنا ؟ أهي التي وجدت لترينا كيف نحزر أين هو الباب وألا ننقل الملعقة خطأ خارج أفواهنا ؟! وما هي عيناها ؟ انهما المعجزتان السماويتان ! هنا لا تمكن المقارنة• لقد حدث ذلك مرة واحدة على وجه هذه البسيطة.

مرة لن تعاد أبداً • وهذا أفضل • حتى يقل العـذاب والحسرة • عينان كتلك يجب ألا تموتا كغيرهما ، أو يجب ألا تولدا أصلاً في هذه الدنيا •

ويسكت الرجل فجأة • لقد خانه صوته • ولم تصدر عن الحلقة أية كلمة أو تعليق • استمر هذا لحظة ، بعدها نشب من جديد خلاف وضحك وهرج مختلط من أصوات تصالبت وشتائم وقحة •

كان الراهب بيتر يتابع من بعيد هذا الحديث الصادر عن تلك الحلقة عندما شعر بأن أحداً خلفه ، حينما استدار ليذهب كان حاييم يقف بجانبه •

وكان الراهب بيتر في أثناء تمشيه في الفناء يتعثر دائماً بحاييم هكذا ، حاييم المطارد أبداً بالقلق وعدم السكينة ، المرتجف دائماً ، المغيّر مكانه باستمرار • وكلما أتى تصحبه أموره الغريبة ، وتكون شكواه في كل شيء وكل انسان هنا بانتظاره ، وفوراً يتخذ كـل « احتياطاته » • وبعد يوم أو يومين يترك ذلك المكان ، ويبحث عن مرقد جديد أكثر أماناً • وكان يحدث أحياناً في أثناء لقائه بالراهب بيتر أن يمر هكذا بجانبه وكأنه لا يعرفه ، وأحياناً يلقي عليه التحيـة فقط بحركة خفيفة من رأسه ، وهو يطرف بعينيه طرفات لها معنى • وأحياناً يقترب منه ويقف ليكلمه بكل حرية ، ريثما يتذكر شيئاً ما ، فينطلق مبتعداً • وهكذا كان الآن ، فقد توقف أمام الراهب بيتـر وابتدأ حديثه عن الرجل ذي الصوت الأجش الكونتراباص[1] • وهنا أيضاً كان يعرف كل شيء •

إنه رجل من أصل سافل • نجح بفضل قوته الكبيرة ، ومقدرته على الوصول الى مجتمع السادة • كان خلال عدة سنوات مضت بطلاً في المصارعة ، معروفاً في كل تركيا • وكان متعهـداً في الجيش ،

وصاحب مقهى ، ثم وسيطاً في أعمال من كل الأنواع . كثيرة هي النقود التي سالت وعبرت خلال يدي هذا الرجل . إنه مقامر وسكير، وزير نساء على وجه الخصوص ، حتى اكتسب مرضاً شنيعاً . لم يكن في حياته نظيفاً ، ولا أقام فارقاً بين ما يملكه هو وما يملكه الآخرون . وقد سارت أموره كما أرادها بيسر وسهولة حينما كان في قوته وعقله . لكن منذ سنتين ـــ ثلاثة ، ابتدأ ينهار الى الأسفل فالأسفل . وابتدأ يخسر كل حساباته . لقد شربت النساء مخه ، وتحللت قوته . وأخيراً هجره رفاقه القدامى وتركوه يغرق . اختلط بأحط وأدنى المجرمين . ووصل إلى هنا رجلاً أعلن افلاسه ، ونصب على الناس مراراً . وها هو يدخل في شهره الثاني هنا وما يزال قيد التحقيق . وبات من الواضح أنه ينهار يوماً بعد يوم ، ويضيع وعيه الذي هو بطبيعته قليل ، حتى إنه بات لا يفرق ما هو قائم فعلاً وما هو ممكن من غير الممكن والذي يحدث ، ولا يتحدث إلا عن النساء. إنه مرض ، بات معه واضحاً ، أنه لا يستطيع الاقتناع والتأكد من امكانية وبديهية وجود حب نسائي ، شوق نسائي ، أو مجرد فكرة، دون أن يشارك هو فيها . فيذوب ضائعاً كقطعة سكر أغرقت في ماء ، حتى لم يبق من ذلك المغتصب القوي والمخرّب سوى تلك الخلافات الواهية مع أولئك العاطلين ، وضرورة دائمة للتكلم والثرثرة . وحتى أصبح في آخر أيامه أكثر حساسية ، لقد ضعف ونحل وأصبح أكثر ألفة ، وصار حديثه أغنى وأكثر حيوية ، وتحول صراخه السابق المشهور الى صوت أجش متهيج نشاز تشوبه في بعض مواضعه تقطعات دامعة باكية متشنجة ، يحاول هو اخفاءها وتمويهها بصياحه على من يحيط به .

ـــ بات لا يستطيع السكوت . لقد تراخت حلقاته ، وكما ترون أصبح ينقّط من كل الجهات . لقد انتهى !

كان حاييم يتحدث بصوت واثق مرتفع مليء بالفرحة ، مستمراً بعرضه لكل شيء وكل حدث ، حتى يهب فجأة ، ناظراً حوله كانسان استفاق فجأة من نومه ، فيطرف بكلتا عينيه ، معطياً لزميلـه اشارة سرية غير مفهومة ، ثم يبتعد من دون سلام ، سائراً بخطوات بطيئة، ورأس منكس ، كرجل يبحث عن شيء لم يفقده .

ويستمر الراهب بيتر بتجواله خلال الفناء ليصل الى حلقة أخرى وهو يتساءل : هل يوجد في مكان ما رجل عاقل وحديث عاقل ليبحث عنهما بقصد النسيان والترويح عن النفس ، كدواء مفقود يصعب ايجاده .



قيل من قبل ، وكان ذلك واقعاً ، إن الحياة الفعلية لا تتغير في الفناء أبداً ، وإنما يتغير الوقت ، ومع الوقت صورة الحياة أمام كل منا ، صورة تبدأ بالأفول باكراً ، فيظهر الترقب من مجرد التفكير في الخريف والشتاء ، والليالي الطويلة أو الأيام الباردة الممطرة . وكانت الحياة أمام الراهب بيتر دائماً على وتيرة واحدة ، وهي تبدو كنفق ضيق ضعيف النور ، نفق لا يتغير بشكل ملحوظ ، كل ما يعرف عنه فقط أنه يضيق كل يوم بمقدار أصبع أو أصبعين ، ومن هنا يحدث للمساجين ذلك الارتباك القصير الذي لا يقاوم ، والذي يرضخ تحت وطأته أعتى الرجال ولو لحظات .

لقد تكلم الراهب بيتر عن تلك الأيام طويلاً وهو يرتفع — بين وقت ووقت — مرتباً جلسته فوق الوسادة ، ساهماً في البعد الثلجي، ومسايراً ذكرياته خطوة خطوة . تحدث بصوت خفيض وواضح :

« أيقنتُ أن أسري طال جداً ، حسب مشيئة العدالة الإلهية • وفي الوقت الذي تآخيت فيه مع جميل ، وغلبني الهمّ من أجله • كنت أقل تفكيراً في نفسي وتعسي • والآن لا أستطيع الدفاع عن نفسي لنفي ذلك ، بل أحذر نفسي وأدعوها أن تصبر ، لكن الصبر يخونني • الليل طويل ، والنهار أطول ، والتفكير هو الأصعب • أكثر ما يزعجني هو يقيني بأنني بريء • فلا هم يستجوبونني ولا أحد من الخارج يأتي إليَّ أو يخبرني بشيء • وحينما أفكر في ذلك يفور الدم في رأسي ، فأتيه وأرغب أن أصيح بأعلى صوتي • لكنني أهدأ ، أصبر وأتآكل من الداخل ، وأتساءل فقط ما الذي ينتظرني بعد • أشياء كثيرة مختلفة تقفز أمام عيني ، أرى كل شيء ولا أرى المخرج • لا إنسان في أي مكان أتحدث معه • قتلتني البطالة والعطالة وهما الأصعب من كل الأشياء وقعاً علي • لم أتعود • لا كتب ولا آلات • سألتهم ألا يوجد لي عمل ما أقوم به ؟ لأصلح طاحونة بن معطلة ، أو أمسح ساعة ما ، أي شيء • فأنا مهني وأنتمي الى ذلك الصنف من البشر • لكن الحارس ينظر إلي دون أن يتكلم • أرجوه أن يسأل رئيس الحرس • وفي الغد يقول لي :

ــ اجلس بسلام ولا تذكر ذلك ثانية !

طولي بنظرة بشعة •

ويدير ظهره إليّ • أردت أن أعلل موقفي ، لكنه احتدَّ وقاس

ــ هذا ممكن حينما يحضر أحدهم سراً مبرداً أو منشاراً ، ليستطيع بواسطته الخروج من هنا بسهولة • لكن أن نعطيهما لأحد من الناس نحن بأيدينا ، من تلقاء أنفسنا ، فهذا غير ممكن • أنت لم تخطط لذلك جيداً •

قال ذلك ، ثم بصق وذهب • وبقيت كالمبلل • رغبت أن أصرخ من خلفه إنني بريء ، وإن الهرب لم يخطر على بالي قط • نفرت دموعي من عيب اجتاحني ، لم أدر كنهه • لكنني حينما فكرت قليلا رأيت أن ما قاله الرجل كان حقاً • فعتبت على نفسي أكثر مما عتبت عليه • أين كان عقلي وتفكيري ؟ وحينما يهبط الناس الى ما هبطت اليه أنا فان أحداً لا يصدقهم أبداً ، وأنا فعلا نسيت مكان تواجدي !

وهكذا ، من جديد أنتظر ملولاً ومهموماً أفول النهار ومجيء الليل الذي يسير أقل بطئاً •

وفي أحد الأيام أطلقوا سراح التاجرين البلغاريين • وبدل أن يذهبا الى المنفى انطلقا الى بيتيهما • وكما هي العادة ، ومن أجل الثواب ، أهدياني الحصيرة التي كانا يرقدان عليها • خذ — قال أحدهما — لعل الشمس تدفئك أنت أيضاً ! كان يهمس مستديراً برأسه الى طرف • ذهبا كظلين • ولم يجرؤا حتى على الفرحة • ومن دونهما أصبحت حياتي أصعب • وبالاضافة الى كل همومي ما فتئت أفكر في جميل ، كما أفكر في نفسي ، وفي حديثه وقدره المنحوس ، وأبدأ بالتخيل •

أستفيق باكراً في الفجر ، وأنتظر بفارغ الصبر أن يفتح الباب• أخرج من تلك العفونة والروائح الكريهة وتلك الشجون • أغتسل تحت الصنوبر ثم أجلس وأتمتع قبل أن تندلق تلك المخلوقات من حجراتها • أما كيف هو الفجر في إستنبول فذاك شيء لا يمكن وصفه • إنه شيء لم أره من قبل في حياتي ولن أراه ما دمت حياً (أحقاً أراد الله ذلك وأعطى كل هذا الجمال للأعداء !) تحمّر السماء وتهبط الى الأرض ، غنية بقدر كافٍ لكل الناس ، للأغنياء

والفقراء ، للسلطان والعبيد والمساجين . أجلس هكـذا أدخّن وأتمتع ــ اذا توافر التبغ ــ مع أن التدخين يعصف برأسي حتى يدوخ . فالدخان من حولي ، وبجانبي يظللني جم ــ جميل الذي لم ينم ، الباهت ، بعينيه الدامعتين ، وأنا أتحدث معه بود وصراحـة وسهولة ، كما لم أستطع ولم أجرؤ على التحدث معه مطلقاً حينما كان هنا وحينما كنا نلتقي ، تماماً كما كنت أتحدث مع أحد الرهبان الشباب من ديري حينما يهاجمه مقت الحياة وتعبها ، فأمسكه من كتفه وأهزه بعنف :

ــ لقد بكّرت ، خدعت الفجر ! إنه الصباح يا جميل أفندي. اسمعني !

يهز برأسه قائـلاً :

ــ بالنسبة إليّ الليل والفجر كله واحد ، أنا لا صباح لي .

ــ كيف لا صباح لك ، يا صاح ، يا أخي ؟ لا تَفتَرِ ، ولا تتكلم كالمجانين. ما دام الظلام موجوداً سيوجد الصباح . ألا ترى هذا الجمال الإلهي ؟

ــ لا أرى ــ يقول منكّس الرأس وصوته يتكسر .

فأشعر بأشد الأسى نحوه ، ولا أعلم ما الذي يجب أن أفعله حتى أساعده ، وكل الفناء الملعون من حولنا مغمور بالنور .

ــ هيا أيها المسكين ، لا تقل ما لا ضرورة له . ولا تجعـل روحك خطاءة . سينعم الله علينا، ستشفى من مرضك هذا، وسوف ترى وأنت معافى ، ناعماً بحريتك ، كل ما هو جميل وكل ما هـو جيـد .

يطأطىء رأسه فقط .

ــ لا أستطيع أنا ــ يقول ــ أيها الرجــل الطيب أن أشفى لأنني لست مريضاً أصلا ، وانما أنا كما أنا ، وليس للانسان مــن نفسه شفاء .

هكذا كان يتكلم هارفاً بمــا لا يعرف ، مقهوراً وغامضــا ، حزيناً الى درجة أن أعتى الرجال يبكي لمرآه . أواسيه لكن عبثاً . أوبخه كأب لأنه لا يرى ما يحيط به ويرى ما لا وجود لــه . وإذا أردنا الحق فأنا أيضــاً كنت أشعر بظلام الصباح الواضح أمامي ، لكنني أعيد الحديث الى نكتة . أستخرج التبغ .

ــ هيا ليشعل كل منا لفافة ، ولننفض الصدأ على الأرض ، ما الذي دهانا ! هل سنشعل ؟

ــ سنشعل ــ يقول على الأغلب من أجلي سنشعل .

ويبدأ التدخين شارداً ، لا أحد يعرف أين ذهب بتفكيره . يدخن بفم كأنه ميت ، وينظر إليّ من خلال دموعه . يا جم التعيس. وتنطفأ لفافته .

صرخ أحدهم من مكان ما « وكان اثنان يقتتلان » فانتفضت. أيقنت ألا أحد بجانبي . انطفأت لفافتي ويدي ما تزال ممدوده . آه ، لقد كنت أحادث نفسي إذاً ! خفت من الجنون كما كنت أخاف من الوباء ، وكما أخاف من مجرد التفكير في أن الرجــل الأوفر صحة هنا يبدأ بمرور الوقت بفقدان وعيــه ووقوعه في الغيبوبــة والأوهام ، فأقف لأنتشل نفسي ، أتعارك داخل نفسي ، أتوتر حتى أتذكر من أنا وماذا أكون ، من أين جئت وكيف وصلت الى هنا . أكرر أمام نفسي لأقنعها بأن عالماً آخر يقوم خارج هذا الفناء ، عالماً

مختلفاً ، وأن الفناء ليس أكل شيء ، وليس أبدياً • وأحاول عدم نسيان ذلك ، والبقاء عند تلك الفكرة • وأشعر كيف يسحب الفناء الملعون الانسان كدوّار مائي الى قعر مظلم •

* * *

ليس سهلاً عليه ، ولا على أقسى الرجال ، قضاء النهار وانتظار المساء وهو مشحون بمثل هذه الأفكار ، والنهار لا يأتي بأي تغيير أو أمل • لا شيء الا اقتراب حاييم ، وها هو يقترب كل يوم ، لكنك لا تستطيع الخوض معه في أي حديث حقيقي • إنه مسكين يغرق كل يوم أكثر ، هابطاً الى درك أسفل في حكاياه السوداء ومخاوفه المتخيلة • وعبثاً يسأله الراهب بيتر كل مرة هل سمع شيئاً عن جميل • إنه لا يعرف شيئاً ، بل إن ذلك لم يعد يهمه البتة • ويبدو كأنه لم يعد يتذكر أصلاً الشاب من مدينة سميرنا • بل ان ما يعتمل في داخله ويغلي هو فظائع أخرى جديدة واتهامات يحكيها بحيوية وقوة ، وبكل تفاصيلها ، وكأنه رأى أكل شيء وعاشه • ثم لا يلبث أن ينساها بسرعة كما تذكرها • ويبدو أن هذا العالم الكبير كله لا يوجد له به ما يكفي من الأخبار السوداء والظلم والمصائب • لذا تراه يعيد صياغتها كلها في نفسه ، فيقصها ، ثم ينساها •

ويقترب حاييم بعد طقوسه الكاملة « للاحتياطات » ليجلس بجانب « أحد الرجال الذين يمكن تصديقهم » فيحاول الراهب بيتر مرغماً أن يظهر فرحته ويربت على كتفه :

ـ ماذا لديك يا حاييم ، يا فرحتي الكبرى ، ماذا لديك من جديد ؟

لكن حاييم يحدجه بنظرة سوداء متشنجة ، بحدقتي عينيه

اللتين ليستا متناسبتين في المواضع نفسها ، وكأنه لم يسمع كلماته. يقول بصوت عكر :

ــ اسمعوا . أنا لا أعلم هل فكرتم أنتم في هذا . من ناحيتي التفكير لا يفارقني في الأيام الأخيرة ، بل يصر عليّ بالحاح ، بأنه لا يوجد هنا رجل صحيح بكامل عقله . أتصدقني ! كلهم مجانين ومرضى ، المساجين والحراس والجواسيس « وكانوا كلهم جواسيس ! » ولن أتكلم عن المجنون الأكبر ، كراكوز ، فمثله في أية دولة أخرى على هذه الكرة الأرضية لم يكن ليوجد إلا في مستشفى المجانين ومنذ زمن بعيد . باختصار إنه الجنون الكامل لكل الناس ما عداكم وما عداي .

كان صوته يرتجف ، وهذا ما اضطر الراهب بيتر الى رفع عينيه حتى ينظر إليه بصورة أفضل . كان حاييم أنحف من ذي قبل ، كعادته غير حليق ، بعينين محمرتين ، كأنه جلس طويلاً بجانب مدفأة أو نار تدخّن . كان رأسه يهتز ببطء ، وصوته رفيع مشروخ ومخنوق .

ــ كلهم مجانين ، أقسم بشرفي !

وشعر الراهب بيتر بالحرج ، وبقشعريرة خفيفة في مؤخرة رأسه . وخيّل إليه هنيهة أن الفناء الملعون ليس له مخرج في الحقيقة .

وقد حدث في ذلك اليوم ذاته أن جاءه أول وأفرح خبر من الخارج .

كان يتمشى ، ككل صباح ، في الفناء . وكان هناك اثنان من المساجين ، بعمر الفتيان ، يركضان أحدهما وراء الآخر في سباق ،

وهما يعملان دوائر حول الراهب بيتر ويختبئان من ورائه • شعر الراهب بيتر بالحرج • كانت الدوائر تضيق وتضيق • وقبل أن ينجح في الابتعاد عن الصبيين الطائشين ، التصق به أحدهما وهو ما يزال راكضاً ، كما يلتصق انسان بملجأ حي • وأحس الراهب بيتر بقصاصة ورق مطوية يدسها الغلام في يده ، قبل أن يتابعا ركضهما بعيداً عنه • انسحب الراهب بيتر الى نهاية الفناء خائفاً ومضطرباً • كانت الورقة مكتوبة باللغة التركية ، بخط يد لا يعرفه : « سيطلق سراح بركان خلال يومين » •

قضى ذلك اليوم متهيجاً ، وكذلك الليل من بعده • وكان واضحاً بما لا يدع مجالاً للشك أن الراهب تادي هو الذي أرسل هذا الخبر •

وبالفعل جاء في نهار الغد أحد الحراس وطلب من الراهب بيتر جمع أشيائه وتحضير نفسه للسفر • وعند حلول المساء أخرجوه وأرسلوه الى — المنفى ، في عقره • ومع أنه لم يكن متأكداً من أن مرسل الرسالة هو الراهب تادي أصبح الآن متأكداً من ذلك ، لأن الراهب تادي لم يتنبأ في حياته بشيء صحيح أبداً •

في تلك الليلة وقف الراهب بيتر على الشاطىء الآسيوي ، في المكان المختار لتجمع المنفيين قبل انطلاقهم • وشاهد في أول مرة وآخرها مدينة استنبول بكل جبروتها وجمالها •

— كان الهواء ندياً له طعم حلو ، يخالج الانسان حرج وضياع بين عشرين منفياً معه • كان ليلاً لا قمر فيه ولا نجوم ، وقد انتصبت أمامه من كل الجهة اليمنى مدينة إستنبول بحلتها الليلية على مدى دائرة نظر كاملة • كانت أشبه بألعاب نارية توقفت أثناء صعودها •

« فالشهر هو رمضان » ، وقد أشعلت القناديل فوق مآذن المساجد كلها وهي تطرف ككوكبة حقيقية فوق أضواء المدينة التي لاتحصى. جلس معظم المساجين مطأطئي الرؤوس ، في حين استلقى بعضهم ، وكان الراهب بيتر يتمعن فترة من الزمن ويقارن كيف تبدو إستنبول نهاراً وكيف هي الآن ، تشرئب بقوة وجبروت كموجة نارية متفجرة في سماء لا ترى وليل لا نهاية له . « كم من الزمن كان ضرورياً لتشعل كل هذه القناديل ؟ ومن سيتمكن من اطفائها أبداً ؟ » . وبدا له ألا مكان على الاطلاق للفناء الملعون ، على وجوده هناك في مكان ما على احدى تلك المساحات الصغيرة المظلمة بين تلك القناديل المبعثرة بكثافة . استدار أخيراً وهو مرهق الى الجانب الآخر ، نحو الشرق المظلم الأخرس . هناك أيضاً مثل هنا ، لا شيء محدد على مد النظر مفروش بالنور . كان الفكر مكبلاً بالفناء الملعون . لقد درج الفناء وراءه في السفر أيضاً ، وسوف يتابعه في صحوه ومنامه حتى عقره ، وخلال مدة اقامته فيها ، بل وبعد ذلك .

ـ عشت في عقره ، ورأيت من الأمور أغربها . لقد حدثتك بشيء منها وما يزال هناك الكثير مما يمكن أن يقال . لقد قابلت ما يكفي من الناس الملاحقين والمنفيين ، من كل الأديان وكل الشعوب ، من مجرمين هم على الأغلب أبرياء . كثيرون منهم قضوا عدة أشهر في الفناء الملعون وكانوا يعرفون كراكوز . وقد استطاع رجل لبناني شاب أن يقلد خطواته وصوته بالضبط ، حتى كنا ننفجر من الضحك ، وهو يتمشى أمامنا صائحاً : « ماذا تقول لست مذنباً ولا مخطئاً ؟ ايه ، هذا جيد لأننا بحاجة الى واحد بريء مثلك بالضبط ! » . كان رجلاً ممتلئاً ، هو بالعرض أكبر مما هو بالطول ، برأس كبير حليق ، ونظارتين بزجاج سميك ، مكون كله من النكتة

والضحك • كان مسيحياً • وحينما تعارفنا أكثر قلت له من أكون ومن أين أتيت • وبدا واضحاً أنه أذكى وأخطر مما يظهر بكثير • رجل سياسي كما يبدو • يمزح ويضحك ، ثم يجلس فوراً الى جانبي قائلاً من خلال الضحك : « آه ، اكراكوز جيد ، إنه جيد بالفعل » فأتعجب : « كيف جيد ؟ يا لتعاسة تلك الجودة ! » • فيجيبني : « لا ، لا ، إنه الرجل الحقيقي في المكان الحقيقي في عصرنا هذا » ثم يقول لي هامساً في أذني بصوت آخر مختلف : « إذا أردت أن تعرف ماهية دولة ما ، وكيفية قيادتها ، وكيف هو مستقبلها ، حاول أن ترى وتعرف كم يوجد في سجون تلك الدولة من الرجال الشرفاء والأبرياء ، وكم يوجد من مجرميها وأشرارها الذين ينعمون بالحرية • سيكون هذا أفضل دليل لك » ـ قال ذلك كله كملاحظة عابرة خلال الحديث • وكان ينهض بعد ذلك ويدس يديه في جيبيه ، يتمشى ويصرخ مثل كراكوز ، حتى يضطرنا جميعاً أن نضحك • وكنت خلال كل ذلك الضحك والنكات أفكر دائماً في جميل ، فيصعب الأمر عليّ جداً ، إذ لا يوجد أحد أتكلم معه عنه ، ولأنني في حياتي ، كما يبدو لي ، لم أشعر بمثل ذلك الحزن والأسف على رجل مثلما شعرت به عليه ونحوه •

مكث الراهب بيتر ثمانية أشهر في عقره • ثم وبفضل جهود الرهبان زملائه وبعض الرجال الأتراك المرموقين ، أطلق سراحه ، وعاد الى بوسنا ، في الفصل نفسه الذي ذهب فيه منها قبل سنة كاملة مع الراهب تادي اوستويتش ، الذي بقي طيلة ذلك الوقت في إستنبول ، وعمل على كل الجهات حتى يحرره •

انها النهاية • لا شيء سوى قبر بين قبور رهبان غير مرئية ،

ضائع كفقاعة في ثلج مرتفع يتوسع كالمحيط ، حتى يحيل كل شيء الى صحراء باردة ليس لها اسم ولا مميزات . لم يعد ثمة حكايات ولا كلام ، وكأنه لم يعد يوجد عالم يستحق أن يمشي الانسان وينظر ويتنفس من أجله . لم تعد توجد إستنبول ولا الفناء الملعون، لم يعد يوجد شاب مدينة سميرنا ، الذي مات مرة قبل الموت، حينما فكر أنه فعلا أو يمكن أن يكون أخا السلطان جمّ التعيس . ولا حاييم المسكين ، ولا عقرة السوداء ، ولا الشرور الانسانية ، ولا الأمل والمقاومة التي تلازمه دائماً . لم يعد يوجد شيء . لا شيء سوى الثلج والحقيقة العارية ، أنه لا مفر من الموت والذهاب الى تحت الأرض .

هكذا بدا الشاب الواقف بجانب النافذة ، الذي شردتهذكريات الحكاية لحظات ، وظللت أفكاره في الموت لحظة واحدة فقط . في البداية بشكل غير محسوس ، ثم بشكل أكثر وقعاً ، وكأنه في استيقاظ بطيء . وكانت الأصوات الآتية من الحجرة المجاورة تصل إلى مسامعه ووعيه بدرجة أكبر وأكبر ، وذلك الايقاع غير المنتظم، الصادر عن الآلات المعدنية وهي تُرمى فوق الكومة ناشرة صوتها الأصم ، وصوت الراهب ميو يوسيتش الذي يملي مفردات جرد الآلات التي بقيت من بعد المرحوم الراهب بيتر .

ـ تابع ! اكتب : منشار من الفولاذ ، صغير ألماني ، عدد واحد ! .



حول الكاتب والكتــاب

بقلم د. وليد السباعي

يحتل الكاتب ايفو اندريتش (١٨٩٢ — ١٩٧٥) مكان الصدارة بين الكتاب الصرب واليوغسلاف ، فهو اشهرهم ، والوحيد الى الآن، واول كاتب من شبه جزيرة البلقان كلها يحوز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦١ . بعد ان استطاع الارتقاء بادبه الى مرحلة جديدة ومتطورة، رفع بها ادب بلاده ككل الى مصاف الآداب العالمية . إنه أكثر من حظيت مؤلفاته بالترجمة من الكتاب الصرب واليوغسلاف ، مستحقاً ذلك اللقب الجذاب الذي اطلقته عليه صحيفة اللوموند الفرنسية اولا ، والذي غدا شائعاً فيما بعد ، وهو : ((تولستوي يوغسلافيا)) . حتى عده ابناء جلدته تاريخاً لحقبة ادبية محددة ، وصار يقال الأدب اليوغسلافي قبل اندريتش والأدب اليوغسلافي بعد اندريتش ، وذلك نتيجة نجاحه في ايجاد تلك النظرة الواقعية الفلسفيــة في الأدب ، واستطاعته ان يجعل المحلي عالمياً ، وخصوصاً في فترة ما بعد الحرب العالميــة الثانيــة .



ولد ايفو أندريتش في قرية دولاتس التابعة لمدينة ترافنيك في جمهورية البوسنا بيوغسلافيا • وهو ابن عامل بسيط وفر لعائلته عيشة غلب عليها الضنك والحرمان • وما كاد يبلـغ الطفل ايفـو السنتين من عمره حتى مات والده ، مما اضطر أمه وهي من دون عمل لارساله الى أقاربهم في مدينة فيشي غراد ليتم دراسته الابتدائية• حيث يعود ويعمل وهو طفل في عمل من أشق الأعمال على الاطلاق ألا وهو قطع الأشجار • واستطاع بشق النفس انهاء دراسته الثانوية في مدينة سراجيفو • ومنذ تلك الفترة ابتدأت أيامه تتحسن • فدرس الأدب في كليات بمدة عدة : زغرب في يوغسلافيا وفيينا في النمسا وكراكوف في بولندا ، وحصل على الماجستير ثم الدكتوراه من جامعة غراتس بالنمسا • وانخرط في العمل بالسلك الديبلوماسي ، حيث مثل بلاده قنصلاً وسفيراً في أكبر عواصم أوربا : روما ، بوخارست، غراتس ، مدريد ، بروكسل ، باريس ، جنيف ، وبرلين • وتعرّف الى الحياة الأوربية الحقيقية في تلك العواصم ، وهو الذي عـاش طفولته وشبابه في بلاده الرازخة تحت الحكم العثماني فترة طويلة ، ثم حكم دولة النمسا ــ المجر ، مما جعلها بعاداتها وطريقة حياتها أقرب الى الشرق ، على الرغم من وقوعها عملياً في وسط أوربا •



يبدأ النشاط الأدبي لإيفو أندريتش مذ كان طالباً في الجامعة عام ١٩١٤ في الشعر الوجداني • حيث يصدر كتاب « مختارات من الشعر الخرفاتي » • وفي عام ١٩١٨ يصدر أولى مجموعاته الشعرية « اكس بونتو » التي كتب الجزء الأول منها وهو سجين ، وكتب الجزءين الثاني والثالث بعد اطلاق سراحه • وكانت تلـك الفترة

التي قضاها في السجن من أشد المؤثرات التي حفرت عميقاً في وجدانه ونفسيته . وفي عام ١٩٢٠ يصدر ديوانه الشعري الثاني « القلق ». ليتحول بعدها الى كتابة النثر . فيصدر أول مجموعة قصصية عام ١٩٢٠ بعنوان « طريق علي جرز لاز » . وعلي هو شخص مسلم يصوره الكاتب بطلاً شجاعاً يفرض الخوف على الجميع . لكنه سرعان ما يقع في حب امرأة ، وهنا تبدأ حيرته وارتباكه . ويتساءل ترى لماذا لا يستطيع الوصول الى قلبها ؟ ولماذا لا يستطيع فعل ما يفعله كل حقير نصّاب ؟ ويعطي الكاتب بطله أبعاداً أشمل مع أنه يعيش في منطقة البوسنا . وينير أندريتش شخصية بطله من الداخل والخارج ، رابطاً ذلك بعادات وتقاليد مجتمعه شبه الشرقي، المأهول ببشر يدينون بالأديان الثلاثة : الاسلام والمسيحية واليهودية ، جاعلا إياه في الوقت نفسه انساناً ذا أبعاد عامة ، مقترباً به من الأدب العالمي حينما يتعرض الرجل عموماً للمشكلة الأبدية التي يتعرض لها دائماً أمام المرأة ، على الرغم من انطلاقه من بيئته المحدودة . بعد ذلك يصدر أندريتش ثلاث مجموعات قصصية وذلك في الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٣١ و ١٩٣٦ . ثم يصدر كتابه « قصص قصيرة جديدة » عام ١٩٤٨ ثم مجموعة « الوجه » عام ١٩٦٠ . وخلال تلك الفترة يمارس كتابة المقالة والنقد والدراسات . فيكتب عن نيغوش وكراجيتش وغويا وسيمون بوليفاري وويلت وايتمان وستراندنبرج وجوباتشيتش وباريف ومدفد وليفستيك ومورن وغيرهم .

تعدّ الرواية المجال الابداعي الأرحب لتحليق أندريتش . فيبدع فيها مع أنه لم يكتب الكثير من الروايات . حيث يصدر حتى عام ١٩٤٩ ثلاث روايات هي : « حوادث مدينة ترافنيك » و « جسر على نهر الدرينا » و « الآنسة » . ويصدر عام ١٩٥٤ رائعته « الفناء

الملعون » • وقد صدرت « الأعمال الكاملة » له محتوية ، اضافة الى الكتب العشرة التي تم اختيارها وترتيبها تحت اشراف الكاتب نفسه عام ١٩٦٣ ، على ما وجد في حوزته بعد وفاته ، وهي مجموعة قصص بعنوان « بيت في العزلة » وأخرى غلب عليها طابع التعمق والفلسفة بعنوان : « علامات على الطريق » وكتاب «شعر وجداني» وكتاب مقالات ودراسات ومذكرات من دفاتر الكاتب ، ورواية لم يكملها بعنوان « عمر باشالاتاس » •

* * *

كانت حياة أندريتش مليئة بالتجارب القاسية والحرمان والشعور بالقهر واللوعة • حيث قضى شبابه التعيس كما أسلفنا في فيشي غراد وسراجيفو وزغرب وفيينا وكراكوف • وعانى مرارة السجن بنفسه حينما سجن إبان الحكم النمساوي ــ المجري لبلاده بتهمة اتصاله بالشباب وتحريضهم على الثورة • وبعد اطلاق سراحه حددت له إقامة جبرية في المنزل • وهو الذي عاش وشب أصلاً في منطقة خضعت للحكم العثماني خمسة قرون ، ثم للحكم النمساوي ــ المجري ، منطقة حبلى بالتوتر والقلق وعدم الاستقرار ، حيث كانت جمهورية البوسنا مراكزاً لصراع القوى الكبيرة حينئذ لبعدها عن مركز الخلافة العثمانية وقربها من أوروبا • لهذا كان طبيعياً أن تحفل روايات الكاتب بالكثير من الرهبان الكاثوليكيين « هو يدين بالأرثوذكسية » والكثير من الباشوات والحكام والسلاطين والمجرمين واللصوص والضباط • وأن تكون قصصه حافلة بشخصيات مسيحية ومسلمة ويهودية ، مليئة بشخصيات من الأغنياء والمتسلطين

والفقراء • كل ذلـك من خلال إبـداع مشغول بهاجس التاريـخ الاجتماعي الثقافي لشبه جزيرة البلقان ، المعبّر عنه بصورة رئيسية على أرض البوسنـا ، التي ترجمت فوق أراضيهـا كل المتضادات الدينية والسياسية بصورة درامية ، في مكـان هو الأقل رفاهيـة وسعادة من كل أجزاء أوربا ، مكـان ساهم في تكويـن شروط موضوعية هي الأكثر تأثيراً من دون شك في رؤيته الدرامية لمصير الانسان وقدره • حيث نرى أن معظم أبطالـه يتعرضون للمحن ، ويختبرون أمام قدر قاس رهيب لا مفر منه • واقفون وهم شـبه عاجزين حياله لقوته وجبروته ، دون أن يخضعوا له ، بل تراهـم يناضلون ضده بكل قواهم الأضعف منه ، حتى يبدو أن القـدر دائماً هو الغالب ، دون أن ينتصر على كفاح الانسان وكرامته ، على الرغم من أن النهاية هي الموت الذي هو حتمية وحق على كل انسان• لقد استحوذت على فكر أندريتش مسألة اللغز البشري ، في إطـار تاريخي خاص مكوّن في المسـلخ البلقاني ، في وقـت استعماريين متتاليين مقتتلين ، عبّر عنهما في سلسلة معقدة من المواضيع الفنية الصدام بين الحقيقة والخيال ، الواقع والحلم ، الحقائق والأساطير ، عالم الشر التاريخي الغريزي المتأصل وعالم القيم الانسانيـة التي يُطمح إليها فتُضرب حتى تفقد كرامتها • هذه المواضيع ابتدأت تظهر في أولى أعماله الفنية القصصية كطريق علي جرز لاز ومصطفى المجري والأعمى والألمانية ، أو في سلسلة القصص القصيرة عن الرهبـان البوسناويين التي نراها تستمر وتتطور شكلاً في أكثـر أعمـال أندريتش الكبيرة اللاحقة : في حوادث مدينة ترافنيك وفيشي غراد ، كشكل خاص متحول معروض من خلال قصص نفسية وتاريخية مثل جسر على نهر الدرينا ، والآنسة ، وفي رائعته الفناء الملعون ، السائرة على خطوط متوازية بوصفها رواية تاريخية ـــ فلسفية معاصرة •

رواية « حوادث مدينة ترافنيك » هي روايـة المدينة ، التي يصورها الكاتب مركزاً بؤرياً لهبوب العواصف السياسية ، ومحرق الثورات ، والاقتتال والمطالبة بالحرية في أوربا . حيث نرى الصراع المرير بين الشرق والغرب ، بين عالمين متباينين في الثقافة والعادات وفهم الأمور . وبما أن تلك المدينة كانت مركزاً للأتراك إبان حكمهم لتلك المناطق اليوغسلافية ، فقد كانت تعيش عيشة هادئة شرقيـة محافظة ، وهي المدينة البعيدة والمهملة ، حتى ابتدأت تفتتح فيهـا القنصليات نتيجة الاهتمام بها وبدء الصراع عليها . فافتتحت أولاً السفارة الفرنسية ثم النمساويـة وغيرها . ويبـدأ الصراع بين القنصلين الفرنسي والنمساوي في أشكال شتى ، ذلك الصراع الذي يخفي بداخله مصالح ومطامع دولية على الرغم من أنه في ظاهـره حكاية سفيرين متباينين في العادات ، حيث الفرنسي المثقف والألماني النظامي . وحتى يضطر كل منهما للانعزال في جو تسوده القسـوة والجهل . لكن انتماءهما لمعسكر غربي واحد ، ضد معسكر آخـر شرقي ، يقاربهما ، رغم الحيطة والحذر اللذين يغلف كل منهما نفسه بهما ، مما يجعل الأمور تبدو ساخرة وطريفة .

« جسر على نهر الدرينا » : هي ملحمة بكل ما تحمل هـذه الكلمة من معنى : إنها رواية أربعة قرون من حياة مدينة فيشي غراد ، يكون الجسر الذي بناه محمد باشا سوكولوفيتش فيها عام ١٥٧١ المسرح الحقيقي لكل الأحداث على الرغـم من كثرتها وتناقضهـا وقسوتها واختلافاتها ، حتى يبدو كرابطة وحيـدة تربط السـكان بكل أجيالهم وتتاليهم ، وكل المحتلين وعهودهم ، بكل ما حصـل وتتالى فوقه من أحداث . ومهما تغيرت المدينة وتغير الناس والحكام فان الجسر يبقى خالداً أبداً وشاهداً على كل ما يحصل . لهذا بدأ

الكاتب روايته ببداية بناء الجسر حيث يصف لنا مراحل بنائه بكل قسوتها من أعمال السخرة والاستعباد التركي والباشوات والعسكر، على الرغم من ظاهرية نبل العمل الذي يقومون به ألا وهو بناء جسر استراتيجي مهم ، ليعطي للحكم التركي صورة مميزة • وبما أن الثورات تنمو في رحم الظلم والفساد ، كان طبيعياً أن يقوم العمال بثورات متعددة على المستعبد للانتقام منه • وأن يولّد الفعل ردّ فعل ، فيقتص الأتراك من العمال بشتى صنوف الانتقام • وبصورة نادرة في الأدب العالمي ، عرفناها نحن العرب في رواية « غروب عند الفجر » لمحمد فريد أبو حديد في أثناء عرضه لقصة سليمان الحلبي، حيث يورد لنا الكاتب طريقة عقاب فلاح متمرد بوضعه على الخازوق، وما يصاحب ذلك من قطع رقاب الثوار حتى بعد موتهم • كل ذلك فوق جسر شاهد على ما يحدث ، حتى تنجلي صورة كفاح الانسان ضد المصائب والمحن ، سواء أكانت بشكلها الطبيعي كالكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وغيرها ، أم بشكل مصائب اجتماعية لم يتوقعها أحد ولا يمكن التغلب عليها كالأوبئة والحرب والظلم •

رواية « الآنسة » : هي رواية نفسية على أكثر من صعيد أكثر منها رواية تعتمد على الحدث نفسه أو على تعدد الأصوات • حاملة اسم العمل الروائي آنسة اسمها رايكا ، أثرت فيها حادثة أبيها في الصغر ، حينما وقع الأب ضحية الاحتيال والخداع ، وفقد شرفه أمام الناس ، وعانى الأمرّين منبوذاً وحيداً ، حتى يموت منهزماً فقيراً أشهر إفلاسه وأضاع كل ممتلكاته وتجارته • فيوصيها وهو على فراش الموت أن تكون يقظة ، قاسية على الآخرين وعلى نفسها، وألا تقيم أي اعتبار أو تفهم لأي شيء ، وأي كان ما دام الأمر متعلقاً بالمال • فتؤثر هذه الكلمات وحادثة الأب في نفسيتها وتحدث شرخاً

لا يندمل ، وتصبح فتاة بخيلة ، وحيدة ، منعزلة ، حاقدة ، مبتعدة عن كل ما هو طبيعي ولذيذ في هذه الحياة ، مما يدعو الناس لانكار اسمها ومناداتها باسم الآنسة • وتعيش حياتها مكرسة كل شيء لجمع المال والمحافظة عليه ، في محاولة نفسية ــ عبثيةعملياً لأخذ ثأر أبيها• ويدخل الكاتب شخصية خالها المستهتر السكير صاحب النكتة في حياتها ، فتحبه وتشعر بميل نحوه ، ولا تستريح إلا في صحبته • وتتعرف الى شاب مغامر مستهتر يشبه خالها ، فتحبه وتقع في غرامه• ويبدأ هو في استغلالها أبشع استغلال ، حتى تبدو مطالبه لا نهايـة منظورة لها • وبما أن جو الرواية كله يتحرك في عزلة ووحدة ، يقل اتصال الأبطال بالعالم الخارجي ، ويقل بالتالي الحوار ، لكن يكثر التحليل النفسي والحوار الداخلي « المونولوغ » •

« الفناء الملعون »: هي آخر رواياته التي خطها في فترة لاحقة، حينما أصبحت قضية السجن في نفسه ذكرى عاشها واكتوى بنارهافعلاً في شبابه • إنها الذكرى المرة لفرز مكنونات الروح والقهر الـذي سكن طويلاً من دون أن يهدأ • في البداية كان « اكس بوتنو » حينما كان الكاتب شاباً وسجن ، وفي آخر الأيام جاءت « الفنـاء الملعون » ، ذكرى لتلك الواقعة • حيث تتكرر الأحداث بشـكل أكثر تعقيداً ، وأقبسى قدرية في سجن ملعون بوطن غريب ، كمكان يسوقك إليه قدر شرير سواء أكنت مذنباً أم بريئاً • فنتأكد من أنه لا شيء أبشع من الظلم ، ونرى المجرمين والأبرياء ورجال الدين والعلماء ضمن سور واحد ، وتبرز في هذا الخضم شخصية كراكوز مدير السجن ، والطرق المتبعة في التحقيق لارضاء الحاكم ، متعرضاً لشخصيات تدين بكل الأديان السماوية الثلاثة ، يعريها الكاتب لنرى جوهر الانسان ، مهما كان دينه ومعتقده ، مستعرضاً جزءاً مهماً من

التاريخ العثماني ، والاقتتال على السلطة بعد موت محمد الفاتح وصراع ولديه عليها ، والطرق البشعة التي يبتز فيها الغرب المسيحي الشرق المسلم الذي تولاه أيضاً الظالمون • وذلك من خلال قصة يرويها شاب على لسان راهب سجين في « الفناء الملعون » ، يقف الآن بجوار النافذة ، تظلله فكرة الموت بكل جلالها •

واذا كانت الكلاسيكية الجديدة قد انشغلت دائماً بالشعر والجماليات والوجدان والشعور ، وتعايشت دائماً مع الرومانتيكية حتى حلت محلها ، بكل ما فيها من شوق وحنين ، ومن يأس كذلك يتصارع فيها اليأس والأمل حتى يعيش الواقع ، والتي نما في رحمها نظام الثورة على السائد والجهالة • وإذا كانت الواقعية بكل ما أتت به أقل قدرة من الرومانتيكية في إظهار واقع فني بصورة قوية ، وإذا كان الأدب الروسي بكل إبرازه للحياة النفسية والروحية للابطال قد أثر أيما تأثير في الأدب ، فان ايفو أندريتش قد هضم ذلك كله هضماً صحيحاً ، باستيعاب كامل ، وتمازج دقيق ، مكّنه من الإبداع بمثل هذا الشكل السهل الفلسفي ، السلس العميق : التاريخي والانساني والنفسي، وبتلك القدرةعلى الرصد والملاحظة، على التحليل والسبر والتركيب والايصال الى القارىء •

هذا هو باختصار عالم ايفو أندريتش الابداعي • إنه عالم الانسان ، ولغز الحياة ، وقسوة الأقدار ، والاحساس دائماً بالظلم والاضطهاد الذي قد يقتل الانسان جسداً لكنه لا يستطيع ابدا أن ينال من روحه وكفاحه وكبريائه •

* * *



أندريتش ، ايفو ، الفناء الملعون ، رواية ، ترجمة :

د. وليد السباعي ــ منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٢

الطبعة الأولى ، ١٣٦ ص قطع ١٧٫٥ × ٢٥ سم

مطبعة اتحاد الكتاب العرب ــ دمشق

٢٠٠٠ ــ ١٢ ــ ١٩٩٢



هذا الكتاب

تتسم الرواية التي يضمها هذا الكتاب بالواقعية الفلسفية والتاريخية ، إلى جانب النزعة الإنسانية ، مع تأكيد على أهمية الحضارات القديمة والحديثة ، والقيم الروحية ، وهي من أهم أعمال الكاتب العالمي ايفواندريتش الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦١ وأشهر كاتب في منطقة البلقان .

ثمن النسخة ٨٠ ل.س في القطر
في أقطار الوطن العربي ١١٠ ل.س

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق